الضدية للتقنية – قراءة في كتابات ثيودور كازينسكي وجاك إلول

يرتدي ملابسه على عجل ليتّقِ برد كوخه الصغير، يحمل بارودته القديمة، يضع في جيبه القليل من الرصاص وأعواد الثقاب وعلى خاصرته سكيناً فربما اضطر إلى إيقاد نار لظرف طارئ. ينطلق ثيودور عبر الثلج باحثاً عن أرنب برّي ليصيده. يراقبه الأرنب عن بعد ويترقب خطواته من وراء أغصان شجرة صنوبر سقطت مؤخراً. ينبطح في مكانه ويضع رأس الأرنب في مهداف البارودة ليطلق رصاصة تقتله فوراً. ذماء الأرنب يتمثل باضطراب ساقيه، عند توقف رعشتهم يذهب ثيودور إلى فريسته ويشكر "جدو الأرنب" (إلهٌ ابتكره كوصيٍ على أرواح الأرانب). لدقائق بعدها يتأمل ثيودور كازنسكي الثلجَ وأشعة الشمس تغربلها أغصان شجر الصنوبر مُقدّراً الهدوء والخلوة.

هكذا وصف كازِنسكي بداية أحد أيامه عندما سكن في كوخه في ولاية مونتانا، حيث وحين حاول العيش حياة بسيطة بعيداً عن التكنولوجيا والمجتمع الصناعي، تاركاً وظيفته كأستاذ رياضيات في جامعة هارفارد. ثيودور المعروف بتيد يقضي الآن ثمانية أحكام متتالية من السجن المؤبد لتسببه في مقتل ثلاثة أشخاص وإصابة أكثر من عشرين شخصاً باستخدام متفجرات صنّعها يدوياً وأرسلها عبر البريد. الأهداف هم شخصيات ومؤسسات مرتبطة بالعالم الصناعي كجامعات ومطارات، الهدف الأيدولوجي من عملياته هو التحذير من التكنولوجيا التي تغوّلت على الطبيعة التي سكن فيها والتي بنظره ستمسح الحرية والكرامة وحتى الحياة الإنسانية عاجلاً أم آجلاً. أرسل ثيودور المانيفستو المشهور بعنوان "المجتمع الصناعي ومستقبله" Industrial Society and its Future واعداً بالتوقف عن التفجيرات إن نُشر في جريدة التايمز أو الواشنطن بوست. بعد نشره ميّز أخوه أسلوب الكتابة وبلّغ السلطات ليتم إلقاء القبض على تيد في الثالث من إبريل 1996.

هل تشكل التكنولوجيا خطراً يستحق إرهاباً لإشعال ثورة ضدها؟ تيد كازِنسكي ليس أول ولا آخر المُنذرين من عذابات التكنولوجيا وسطوة التطور الصناعي على البشر وآثاره على الطبيعة لكنه من أشهرهم. للأسف شهرته ترتكز على كونه مجرماً ويصوره الإعلام دوماً بالمجنون المتطرف دون التطرق لأفكاره. شخصياً تعرفت أكثر عن حياته أثناء كتابتي لرواية دم وقيح المنشورة في كتاب المخيلة: الشظية الأولى. اضطررت لوضعه في موقعه كمجرم في جانب مجموعة من القتلة المتسلسلين في الرواية، عندما اطلعت على كتاباته وجدت فيها ما يستحق التفكر والنشر لذا قررت أن أكتب مقالة تلخص بعض ما وجدت كي أُنصِف أفكاره. بالتأكيد أرفض الوسيلة التي استخدمها كازِنسكي لإيصال رؤيته لحرمتها، لكنني التمست موضوعياً في هذه الرؤية ما يستحق التأمل، خصوصاً بسبب ضمور التفسيرات السياسية والاقتصادية والدينية -في نظري- لما يحصل في عالمنا العربي والعالم أجمع ولأن نظرة "الضدية للتقنية" في نظري أقدر على تفسير أحوال عصرنا من التفسيرات الاقتصادية في المحور المادي لفهم العالم.

قسمت المقالة إلى ثلاثة أجزاء كي أسهّل القراءة في عصرٍ تقني شوّه قدراتنا على التركيز المطوّل.

.

التكنولوجيا خصم الحرية

تم تناول موضوع طبيعة التكنولوجيا الحديثة وخطرها والآفاق التي فتحتها من قِبل عدد من المفكرين عبر الزمن، منها المشهور والمُعقّد فلسفياً كمقالة مارتن هايدغر المتعلقة بجوهر التقنية The Question Concerning Technology ومنها العام كمقالة ثوماس كارلايل عن العصر الميكانكي Signs of the Times ومنها المُفصّل ككتابي لويس ممفورد عن أسطورة الآلة Myth of the Machine والعديد غيرهم. الفلسفة الناقدة للتكنولوجيا ما زالت على أطراف الأوساط الفلسفية الغربية المعاصرة. هذه المقالة لا تدعي أبداً شمول جميع وجهات النظر حول فلسفة التكنولوجيا، سأكتفي بكتاب "المجتمع التقني" Technological Society للفيلسوف الفرنسي جاك إلول بالإضافة إلى كتابي تيد كازِنسكي ("العبودية التكنولوجية" Technological Slavery و"ثورة ضد التكنولوجيا: لماذا وكيف" Anti Tech Revolution: Why and How) المنشورَين بعد إلقاء القبض عليه بمساعدة ديفيد سكربينا وهو بروفيسور فلسفة في جامعة ميتشيغان وله كتاب "ميتافيزيقيا التكنولوجيا" Metaphysics of Technology الذي يحتوي على تاريخ نقد التكنولوجيا والمفكرين الذين حذّروا بطريقة أو بأخرى من العواقب التكنولوجية وسط فلسفة الكاتب المعنية بميتافيزيقية التكنولوجيا.

الغاية من هذه المقالة بأجزائها الثلاثة رسم صورة عامّة للفِكر النقدي للتكنولوجيا والتقنيات بصياغة تجمع الصيغة الجذرية المتجسدة في مقالات ثيودور والصيغة الفكرية في كتاب إلول بالإضافة إلى ملاحظات متواضعة أضفتها لتقرّب هذا الفكر من واقعنا المكاني والزماني. للتنويه لمخاطر قد لا نرى ارتباطها المباشر بالتطور الصناعي.

أفكارهم ليست ببساطة ذم بعض أوجه التكنولوجيا والتقنية كمظاهر واختراعات منفصلة، أو كأضرار جانبية لأنظمة اقتصادية أو سياسية أو ثقافية، بل قوامها نقد النظام التكنولوجي والتقني كقوة لها طبيعتها المستقلة التي تسيطر على الإنسان لا العكس كما يعتقد معظم الأناسي. النظام التكنولوجي يتحكم بكل الجوانب المتعلقة بالتنظيم الاجتماعي من سياسة واقتصاد وعادات. يمكن القول بأنهما ينذران بخطورة "الجبرية التقنية" Technological Determinism ويدعوان للتفوق عليها. الجبرية التقنية نظرة يتشارك فيها -بدرجات متفاوتة- بعض نقاد التكنولوجيا وبعض محبيها مثل ريموند كِرزويل.

سأنقل عدة أفكار منهما -بتصرف ترجمي- دون نقدها كي أعرضها على القارئ كما وجدتها، لا يعني ذلك إقراري بكل ما جاء، لكني أرى فيها دقة منطقية كافية تستحق التفكر، وتوجهاً يستحق النشر بالعربية. سأفصل بين أفكاري وأفكار الكتّاب بكلمتي أُضيف وأضِف، أي جزء لا يشير مباشرة إلى الكاتبيَن فهو إضافة أو تأويل من عندي كي لا أظلمهم بتقويلهم ما لم يقولوا. لن أورد ردوداً من المفكرين من أنصار التكنولوجيا -ولا أفترض وجود الكثير منها وفقاً لديفيد سكربينا- أو مني في هذه المقالة كي لا تطول أكثر من اللازم.

بعض القراء قد لا يروق لهم ما سيأتي، التكنولوجيا سهلّت الحياة وفتحت آفاق المعرفة وطَوَت المسافات في نظرهم، لكن هل يتساءل هؤلاء عن المقابل؟ هل أصبح الناس أكثر حكمة مع الإنترنت؟ الطيران الذي يتيح لنا السفر، ألا يتيح في المقابل القصف الجوي؟. أو سيرون في الطرح اختزالية أو تركيزاً مُفرطاً على التكنولوجيا، في العادة لا يجد أولئك ضرراً في اختزال المشكلة بالنظام الاقتصادي النيوليبرالي أو الرأسمالي، في المقابل لا يجد آخرون غصاصة في اختزال كل شيء إلى الدين وموازنة بين حسنات وسيئات دينية. أو لظنهم أننا في عنق الزجاجة واختناقنا الآن سيفضي قريباً إلى جنة تكنولوجية تريحنا من كل الأعمال وتقدم لنا كل ما نشتهي دون استثناء حلم الخلود، كم علينا أن ننتظر للوصول إلى النعيم التقني وهل هناك أدلة على وجود تلك الجنة الدنيوية؟ البعض قد يتفق مع كل ما سيأتي لكنه سيرى أن ما بعد الحداثة والروح العدمية هي السبب، من أتى أولاً، العدمية أم الثورة الصناعية العلمية؟ أخيراً قد يستاء البعض من ضرب الأمثلة على مثالب التكنولوجيا ويَرُدّ في عقله باستحضار محاسنها، لا يُنكر أحدٌ هنا إيجابيات التكنولوجيا، المسألة هي مسألة وضع الحسنات والسيئات في كفتي ميزان ومحاسبة النظام ككل.

هناك رد ساذج مثل التذكير بأنني أستخدم التكنولوجيا لنقدها، لا داعي للرد عليه. لكن هناك ملاحظة سليمة تستحق التعليق سلفاً لأنها قد تتردد بكثرة في ذهن من يرفض الجبرية التقنية أو الضدية للتقنية. الملاحظة هي أن مفهوم الحرية البشرية والخيارات البشرية قد تنفي الأمثلة المذكورة: "كل المساوئ من لدن البشرية لا الطبيعة التكنولوجية". هذا قد ينفع رداً للجبرية التقنية لكن لا للضدية للتقنية كما سأوضح خلال المقالة وفي آخرها. بل سأتفق معها كحل نهائي للمعضلة التقنية لكن في محلها الصحيح لا كتجربة فكرية. أما الآن أكتفي بالرد على نظرة الحياد التقني هذه بدعوة القارئ ليعاين مدى حريته الحقيقية في ظل النظام التكنولوجي، هل نحن أحرار حقاً لنرفض استخدام الهواتف، البريد الإلكتروني، الحواسيب، المركبات؟ قد يقول أحدهم "نعم، نظرياً لدينا الحرية لترك كل هذه الاختراعات" حسناً، لكن السؤال عمليٌ هنا. هل حقاً لنا تلك الحرية؟ كيف لنا في هذا السياق أن نفصل بين امتناعنا عن فعلٍ أمرٍ نفعله لأننا أحرار وبين عدم قدرتنا على الامتناع لأننا مجبورون؟ نحن مدمنون على التكنولوجيا بصورة لا نعيها تماماً، رفض الضدية للتقنية ينبع من نشوة الإيجابيات، الحقيقية منها والمزعومة. تماماً كما يرفض المدمن على المشروبات "الضدية للكحولية"، أو يزعم أنه يستطيع تركها وقتما يشاء. هذا على المستوى الفردي، على المستوى الجماعي تتعقد المسألة وكما يتساءل ديفيد سكربينا، هل ممكن لدولة أن تمتنع عن استخدام تكنولوجيات؟ أن تعود ببساطة خطوة تقنية إلى الوراء وتعمل دون هواتف أو مركبات؟ هل هناك معنى من القول بأننا "أحرار" لفعل ذلك إذا كان ذلك شبه مستحيل على أرض الواقع؟ لننتقل من سؤال حرية الاستخدام من عدمه إلى سؤال حرية طريقة استخدامه، مع الإقرار بأن لدينا مشكلة في التخلي عن التقنيات والتكنولوجيا المعاصرة علينا أن نتساءل أيضاً عن كم الحرية الواقعية التي نملك عند استخدام التقنيات، أظن أن التصميم يحركنا للتصرف بطرقٍ معينة، أقصر طريقٍ لملاحظة ذلك هو من تصرفاتنا على مواقع التواصل الاجتماعية المختلفة وحتى على الموقع ذاته قبل و بعد تغيّر تصميمه مثل إضافة أو حذف بعض الخاصيات.

آخرون قد يجدون في المقالة ضالتهم وصياغة أفضل لما يشعرون به بين الفينة والأخرى عندما يجدون أنفسهم تحت رحمة التكنولوجيا والتقنيات المختلفة، عندما يلاحظون مساوئ تكنولوجية تُنذر بالخطر ولشكهم بأن الإحساس بالاختناق ليس لصِغر قطر عنق الزجاجة وإنما لالتفاف أسلاكٍ حول رقبة البشرية جمعاء. لتبدّل عالمهم بسرعة مخيفة، في الخلوة وبالتحديق بأزمة وجودية حقيقية أو ربما مصطنعة لأن الترفيه يريهم شخصيات بأزماتٍ وجودية ونفسية. في وظيفة تطفئ الروح أو عند تأمل ما يحيطهم من تقنيات تتكاثر كالأرانب، عند مراجعة خيارات وظيفية وتضحيات شخصية على مذبح التقدم الوظيفي الصناعي.

أدعو للقراءة بما يستطاع إليه سبيلاً من الموضوعية فالهدف لا التبشير بالضدية للتقنية وقبولها تماماً وإنما دعوة للتيقظ إلى الجوانب المظلمة من الأدوات والآليات التي تغمرنا في عصرنا الميكانيكي، وإلى تبعات هذا الانغمار التي تطال كل ما نفعل وكيف نفكر. الخطر

هنا ليس فقط شعور بالإزعاج بل خطر الانقراض للبشرية أو مسخها تماماً كي تواكب النظام الصناعي، الخطر مضاعف للثقافات التي لم تلتحق الرَكب التكنولوجي.

من المتهم؟

مصطلح التقنية الذي يستخدمه جاك إلول أشمل من مفهوم التكنولوجيا كمجموعة من آلات واختراعات مادية. *"التقنية في المجتمع التقني هي محصلة الوسائل التي تم التوصل لها بعقلانية والتي تسعى للوصول للكفاءة المطلقة (التي تسمح بها درجة التطور في كل مرحلة زمنية) في جميع ميادين النشاطات البشرية، التقنية الحديثة تختلف تماماً عما سبقها في العصور السابقة"*. هذا التعريف للتقنية هو عام لكن إلول يُسهب في الفصول المختلفة عن الخصائص التي تحدده في إطارات مختلفة من مناحي الحياة، الإطار الأساسي هو أن التقنيات صارت حضارة هدفها الأساسي التقدم التقني دون أي اعتبار آخر، حضارة صنعتها التقنيات وتهدف إلى تطوير التقنيات فقط، الإنسان فيها عبدٌ للتقنية لا السيد عليها وسيدوم الحال كذلك ما لم يغيّر وجهتها أو وجهته الفكرية إزاءها.

عندما يتحدث كازنسكي عن مساوئ التكنولوجيا فهو يشير إلى التكنولوجيا كنظام موّحد تتكافل أجزاؤه لإنجاز العمل وبالتالي لا معنى من إبقاء الأجزاء "الجيدة" والتخلص من "السيئة" منها، مثلاً العمليات الجراحية "الجيدة" المعقدة تتطلب وصول المجتمع لدرجة معينة من التقدم التكنولوجي "السيء" الذي يتيح هذه العمليات. المثال[1] الذي يضربه جاك إلول كطرفة على لسان صديقه الجراح: عمليات زراعة الأعضاء من ثمار التقدم التكنولوجي الطبي لكن لتنجح هذه العمليات لا بد من أعضاء في حالة جيدة من جثة توفيّ صاحبها للتو، حوادث السيارات هي المصدر الأساسي لأعضاء تُوفي هذه الشروط، فلو قلّت حوادث السيارات لانخفضت معها إمكانية إجراء هذه العمليات.

يعترف كلاهما بوجود إيجابيات لكنها إيجابيات علينا التخلي عنها في نظر كازنسكي لأن المفسدة تفوقها، وللتعبير عن ذلك يستخدم المثل الإنجليزي "لا تستطيع أن تأكل الكعكة وأن تملكها في الوقت ذاته". ما هو هذا الفساد الذي يفوق الفائدة في الكيان التكنولوجي؟ في نظر كازنسكي ذاك الفساد هو تغوّل التكنولوجيا على حرية الفرد، وخطر إبادة البشرية مباشرة أو تشويه البيئة لدرجة تمنع بقاء أي حياة معقدة على كوكب الأرض، ولو لم يحصل ذلك فإن التكنولوجيا ستعبث بقيم الإنسان وتركيبته الجينية لينمسخ كائناً مختلفاً. لنبدأ بالحرية في الجزء الأول من المقالة.

طحن الحرية بين مسننات التكنولوجيا وتضخم التقنيات

في مقدمة المُترجم لكتاب إلول، يقول جون ويلكنسون أن المواطن في المدينة التقنية سيملك كل ما يشتهيه قلبه، باستثناء شيءٍ واحد، الحرية.

التكنولوجيا تشكل قوة اجتماعية تفوق قوة التطلع للحرية وفقاً لكازنسكي، يشرح هذه النقطة مستعيناً بمثال تطور وسائل النقل الحديثة، ففي مطلعها لم يكن لها ذاك الأثر على الحرية، استطاع الفرد أن يتنقل كيفما شاء وبالسرعة التي يريد. انتشار السيارات لاحقاً لزمه نظام من الرخص والصيانة ، تغيَّر تخطيط المدن ليصعب أو يستحيل على الفرد أن يتنقل على قدميه فقط وحتى عندما يتنقل مشياً فهو مضبوط بطرق مصممة بشكل أساسي للمركبات. لو لم يملك مركبته الخاصة فهو مضطر لركوب المواصلات العامة حيث تقل حريته أكثر مما لو ملك مركبته الخاصة. هذا الاختراع ظهر كخيار يزيد من حرية التنقل لكنه أمسى ضرورةً تنزع من الإنسان حرياته. المثال الذي ضربه في تضارب التكنولوجيا والحرية هو مثل جارين يملكان مساحات متساوية من الأراضي في بادئ الأمر. أحدهما أقوى من الآخر وفي كل حينٍ يطلب قطعة من أرض جاره، الجار الضعيف يساوم ويتنازل شيئاً فشيئاً عن أرضه وسيفقد كل ما ملك في نهاية المطاف. تصوّر الحرية عند كازنسكي يشمل طيف الحريات بأكمله ولا يقتصر على الحريات السياسية فقط كما يتبادر للذهن عندما تُذكر هذه القيمة الجليلة.

المواطن المعاصر وفقاً لكازنسكي مُلزمٌ باتباع شبكة القوانين وضوابط يضعها أشخاص لا صلة له بهم ولا قدرة له على التأثير بقراراتهم، وجود هذه الشبكة حتمية في المجتمع التقني إذ لولاها لعمت الفوضى في نظام الإنتاج وفي المجتمع المتضخم، من الضروري للبيروقراطية أن تُثقل بمثل هذه القواعد لتسيير الأمور لا للؤم البيروقراطيين. مثل هذه القرارات لا تقتصر على معاملات حكومية بليدة وإنما تتضمن أمننا ومصيرنا دون أن يكون لنا قولٌ فيها، حياتنا تعتمد على صحة معايير السلامة في المفاعلات النووية التي يضعها غيرنا، على كم المبيدات التي تُرش على أطعمتنا وفي الهواء دون إذنٍ منا، وظائفنا قد تختفي بسبب قرارات يتخذها اقتصاديون أو أصحاب الشركات، كل هذا يحصل دون قدرتنا الفردية على مجابهة أو الدفاع عن سلامتنا أو الاختيار بأنفسنا. الحرية التي توفرها التكنولوجيا لنا كأفراد تدور في فلك الترفيه وخيارات ثانوية أو معدومة الأهمية فقط، أما ما يهمنا فهو خارج تماماً عن سيطرتنا. ديفيد سكربينا يشرح هذه الفكرة بالصورة الآتية: كل تقدم تكنولوجي يبدو أول ظهوره بأنه خطوة إيجابية، بعد أن نستخدمه تأتي التبعات التي ما كان لنا أن نتوقعها فور ظهوره، في تلك اللحظة يكون الوقت قد فات للتراجع عنه.

أضيف إلى نقطة الحرية والتقنيات البيروقراطية، نحن "أحرار" لنقف في الطوابير لساعات ونضيع في دوامة التواقيع والوثائق عند إجراء أي معاملة حكومية، عند وقوع خطأ في هذه المعاملات قد نخسر حقنا أو أملاكنا، يمكن أن نتأخر عن رحلة لأننا لم نؤجل خدمة العلم أو نتعرض لاستجواب لتشابه الأسماء، أخطاء لا تعود لتحامل الموظفين بقدر ما تعود للطبيعة البيروقراطية. وربما نجد أنفسنا أمام تناقض منطقي وأمام موظف كآلة لا يدرك ما تعنيه عندما تقول أن الجهة التي يطلب منك التوجه إليها هي من أرسلتك إليه. الحل في العقلية التقنية هو المزيد من التكنولوجيا، أتمتة هذه الأنظمة، إعطاء الدولة المزيد من السلطة على الأفراد من تسجيل بصماتهم وصورهم وربما قريباً أصواتهم وحقنهم بشرائح تحدد مواقعهم. تلك الهموم المحلية خطيرة لكن هناك ما يفوقها خطراً بالنسبة لنا كجماعات تمتلك الجماعات المعادية لنا أسلحة فتاكة لا نستطيع مجابهتها مهما ملكنا من شجاعة وقوى جسدية، مما يؤدي إلى سلب حرياتنا إما مباشرة عن طريق الاستعمار أو بطريقة غير مباشرة عبر التدخلات في سياساتنا. نقطة أخرى أرجو تذكرها في نهاية المقالة. قبل أن أعود لكلام الكاتبين أدعو القارئ للإطلاع على مفهوم Megamachine للكاتب لويس ممفورد، الذي يدمج بين الظلم البشري والضلال التقني مما يخلق مجتمعاً يفقد الفرد فيه إنسانيته.

يُبرز جاك إلول أوجهاً أخرى لقلة حيلة الرجل المعاصر في المجتمع التقني، مع تداول آلة جديدة قد يفقد العديد وظائفهم ولا يعود لهم حاجة في مكان عملهم، الحلول المطروحة مُذلة للإنسان وتتعارض مع طبيعته. الرأسمالي يُطمئن الناس بأن التكنولوجيا ستفسح مجالات جديدة للعمل، هذا يعني أن من فقدوا وظائفهم عليهم تعلم حرفة جديدة وعليهم الانتظار دون وظيفة في تلك الأثناء (سرقة الزمان من الفرد). أما الشيوعي في النظام السوفيتي فتتكفل الدولة تدريبه على مهنة أخرى لتنقله مكانياً كي يفيد الدولة بطريقة أخرى، أي أن الحل يتطلب إعادة توزيع جغرافية (سرقة المكان من الفرد) وتأهيل وظيفي (يعلّق كازنسكي بأن هذا النوع من الإجبار الوظيفي لا يكترث ما إن كان مهيناً للأفراد). الإنسان في النظام الصناعي يمسي طرداً ليتنقل بهذه الصورة ويتحول لمادة تتقولب كيفما اتفق.

خيارٌ ثالث أقرب إلى وقتنا يتمثل باقتراح المرشح الأمريكي آندرو يانغ لإعطاء راتب أساسي لجميع المواطنين. يانغ يطرح مشكلة الأتمتة وفقدان الوظائف في حملته الانتخابية، حلّه لفقدان وظائف سائقي الشاحنات عند صدور شاحنات ذاتية القيادة وللآخرين من طردى التكنولوجيا هو راتب أساسي من ألف دولار لجميع المواطنين، الحل بمثابة رشوة كي يغض المواطنون الطرف عن تقدم التكنولوجيا غير العابئة بما تمحق في طريقها. كل شيء ممكن في مخيلة البشرية اليوم سوى أن نوقف أو نبطئ التقدم التكنولوجي.

هنا في الأردن نستطيع أن نرى الأثر بوضوح في طبيعة العمل المرجوة عند خريجي الجامعات الأردنية، حيث تُدرَس التخصصات بنية السفر والعمل الشاق بشهادتها في الغربة. من السهل لوم الرأسمالية لكن علينا أن نوسع دائرة التحليل لنتأكد ما إن كانت وفرة المنتجات والمواد والتطورات التكنولوجية التي نعهدها في يومنا ممكنةً دون هذه الدرجة من السعي والجهد الجماعي. يُلام الفساد في ذلك ولا غبار على صحة لومهم لكن الخريجين ينسون جانباً آخر من المشكلة وهي طبيعة الصناعة التي تتطلب مختصين في أماكن معينة في العالم، إذ لا معنى من وجود مهندس ميكانيكي في حقل قمح، آلات الزراعة (التي اخترعها أمثاله من مهندسين) لتتكفل بذاك الحقل لم تكترث بمآل المزارعين (ربما كان منهم لو وُلِد في زمن سابق) أي، الخريج محكوم بمتطلبات العالم الصناعي، لا بمتطلباته المباشرة كبشري ولا حتى بحاجات محيطه الجغرافي فهو يعمل في دولٍ أخرى ويُرسل النقود بدلاً من أن يعمل في دولته مباشرة. السؤال الذي يليه هو عن قيمة الإنسان إذ سمحت له التطورات التقنية الطبية بأن ينجو من الكثير من الأمراض والعلل مما زاد من تعداده وفي الوقت ذاته سلبته التطورات التقنية من وظيفته، هل العالم الصناعي بحاجة لهذا العدد الهائل من البشر؟ وهل العالم الطبيعي قادرٌ على تحمل هذا العدد أصلاً؟ قيمة الإنسان في السياق المادي كقيمة أي شيء آخر هي قيمة مرتبطة بعلاقة عكسية مع وفرته. نستطيع رؤية نتيجة تقاطع الحقيقتين السابقتين مباشرة عندما نأخذ بعين الاعتبار التعداد الضخم لبعض الدول وتوجهات شبابهم العملية، العمال الآسيويين في دول الخليج، العمال المصريين في الأردن، العمال الصينيون في الصين ذاتها.

هذا النوع من التنقل الجماعي لغايات وظيفية غير مسبوق في الحضارات القديمة ولا في الطبيعة الفلاحية، حتى البدوية منها ترتبط بمساحة صغيرة نسبياً وعلى أقل تقدير لم تكن تتطلب حياة البدوي جوازات وإقامات ومقابلات عمل. بالمجمل كان المرء يعيش في مساحة محدودة ولم يكن مُجبراً على التنقل لمساحات شاسعة ليُحصّل لقمة العيش. علينا أن نفرّق بين حرية السفر وسهولة السياحة التي أتاحتها التكنولوجيا وبين إجبار الملايين على التنقل والعيش في ظروف صعبة للعمل بعيداً عن الأهل والأصدقاء. علينا أن نفكر ملياً بتبعات البعد الجغرافي بين الإنسان وبين ما يستهلك من أساسيات كالغذاء. هل هذه تنقلات نختارها بحرية أم يختارها لنا العالم الصناعي؟

هل من مناص؟ التقنيات وفقاً لإلول ستخترق كل جوانب الحياة الفردية وسيستحيل على الفرد الخروج من المجتمع التقني جسدياً أو روحياً، الفرد لن يجد مكاناً لم تمسسه التقنيات والتكنولوجيا، قطعة أرضٍ لا تمر فيها أسلاك كهرباء أو شوارع، داخل المجتمع التقني لا يستطيع الفرد أن يتجنب الضوابط التقنية بأي طريقة قانونية. لو حاولت جماعة أن تقطن في منطقة نائية وتعيش عليها حياة بدائية بعيدة عن صخب التكنولوجيا ستبقى تحت أنظار الحكومة، على لسان المواطنين التقنيين، وما هي سوى مسألة زمن حتى يصلها الامتداد العمراني.

البطالة مُستهجنة لعدة أسباب، أزعم أن أحدها هو الاقتناع المعاصر بأن الجميع عليهم أن ينخرطوا في النظام الصناعي في كل لحظة في حياتهم. "ثقافة العيب" هي المفك الذي يقنع الجميع بأن عليهم أن يكونوا جزءًا من الآلة التقنية حتى وإن كانوا فقط براغي فيها. كما أن البطالة في مفهومها المعاصر غريبة على الإنسان سابقاً، عمله كتاجر أو مزارع أو مهني أو بأسوأ الأحوال كعبد دام لفترة طويلة وارتبط بأمان وظيفي ما لم تحصل حروب أو كوارث، أمان وظيفي ممتاز مقارنة بوظائف عصرنا. أما اليوم يحلم الشباب بالعبودية الوظيفية، أن يعمل المرء طول حياته في عملٍ لا يطيقه فقط إن قدّم هذا العمل له ذاك الأمان الوظيفي. وحتى لو حقق ذلك لنفسه فلن يورث هذا الأمان لأولاده كما ورّث المزارع أو المهني سابقاً "الكار" لذريته، لأن الوظائف في المجتمع الصناعي -سوى الحكومية في بلادنا- لا تورّث. إلول يدعي أن أي شخصٍ يظن أنه قادرٌ على الهروب من براثن المجتمع التقني منافق أو فاقدٌ لوعيه.

لكن أليس كل ما سبق جزء من طبيعة الجماعات البشرية، نعم الإنسان سابقاً لم يضطر لاتباع تعليمات قانونية وتقنية لكنه وقع تحت رحمة البيئة والمجتمع، لماذا يبالغ هذان الرجلان بقساوة الظروف المعاصرة ويهاجمان التكنولوجيا التي يتفاخر بها ابن هذا العصر كما يتفاخر العربي بنسبه؟

مخاطر اليوم والبارحة

على مستوى الأمن والتأثر بالعوامل المحيطة بنا يُقرّ تيد بأن الرجل البدائي لم يملك حيلة لدفع كل المخاطر البيئية، قد يصاب بمرضٍ لكنه يستطيع تقبل هذا الخطر كجزء من الخطر البيئي (إن لم يعتقد بأنه من صنع ساحر) فهو حادث خارج عن يد الجميع ولذا لا لوم على البشر فيه. أما المخاطر التي يتعرض لها الإنسان في يومنا هي مخاطر صنعتها أيدي البشر عبر التكنولوجيا، أضرارها تفوق بأشواط أي مما تعرّض له الإنسان سابقاً. الأخطار ليست صدفاً طبيعية وإنما قرارات لمنظمات ضخمة لا قدرة للفرد على التأثير بها، حتى العامل في تلك المنظمات قد لا يقوَ على إحداث تغييرٍ بأنظمتها فهو كموظفٍ ينصاع لمنطقها الداخلي كما ينصاع الآخرون لمنطقها الخارجي. الرجل البدائي يواجه السباع لكنه ليس معدوم الحيلة أمامهم، أما الآن الإنسان عاري وموثوق الأيدي أمام الحوادث النووية، التسمم الغذائي، التلوث البيئي، الحروب العالمية، الضرائب المتراكمة، اختراق حريته واختفاء مساحته الشخصية، حتى القدرة على خلق هذه المساحة بعيداً عن المجتمع ممنوعة. وأُضيف إلى ذلك أن التغيّر المناخي هو إثر تدخل الإنسان السافر في الحلقة البيئية المتجددة بطبيعتها وإسرافه باستهلاكها، حتى مخاطر البيئة التي كانت في السابق خارج نشاطات البشر باتت مخاطر صنعناها بأنفسنا.

الحرب قديمة قدم الإنسان -ربما- لكن طبيعة الخطر الذي تمثله مختلف تماماً في زمننا، ففي المجتمعات البدائية أو تلك التي سبقت الإنفجار التكنولوجي كانت بين رجالٍ يلوحون أسلحة بيضاء. كان الرجل يحارب ليحمي قبيلته أو يشترك في غارة على قبيلة ثانية، كم الأذى الذي يستطيع أن يوقِعه كفرد وحتى كجماعة لا شيء مقارنة بكم الدمار الذي تسببه الأسلحة المتطورة. طبيعة الحرب في عصرنا تنتج حصيلة قتلى لا يتخيلها العقل السابق للثورة الصناعية. من ناحية الحرية الشخصية فإن الجندي قد يُجبَر على القتال لأسباب لا يقتنع بها، أو يُخدع ليصدقها وفق تقنيات البروباغندا والتكنولوجيا التي تفسح المجال لغسل الأدمغة الجماعية وبسرعة غير مسبوقة. ثم عندما تنتهي المعارك يعود الجندي بإصابات لا تُقارن بإصابات البارحة، طعنات الرماح والسيوف لا تقارن بفقدان الأضلاع والتشوهات التي قد تصيب الجنود. أضيف إلى ذلك الطائلة النفسية التي تختلف تماماً عما سبق، كان المخضرمون أبطالاً تحترمهم مجتمعاتهم أما اليوم فهم موظفون متقاعدون، وحتى لو انتصروا بقدراتهم التكنولوجية الجبارة فهم يعودون بأعباء نفسية تؤدي للانتحار.

التطور التكنولوجي يسهل حجب إدراك المقاتل لوحشية أفعاله بسبب البُعد المكاني بينه وبين المقتول، حتى كلمة "مقاتل" تفقد معناها، من هو الذي يقاتله؟ الأصح تسمية أصحاب بعض المواقع العسكرية بالقاتل. الطيار يضغط على زر لتهوي صواريخه بعيداً عنه ويستحيل أن يحس بفظاعة الإنفجار كأولئك الذين هوى عليهم الموت من السماء. المتحكم بطائرات مُسيّرة يجلس مرتاحاً في غرفة التحكم، يرى الضحية بطريقة أوضح من الطيار لكنه لا يتعرض للخطر وما يراه أشبه بلعبة الكترونية. "القاتل" في سلاح المدفعية هو أقرب إلى المهندس فهو يعمل على توجيه السبطانة وفق الإحداثيات بعملية رياضية. عند انتهاء المعركة بالأسلحة البيضاء قد تمتلئ رقعة صغيرة من الأرض بالجثث لكن ذلك لا يُقارن بالتفجيرات التي تمسح مساحات شاسعة من البيئة أو الأسلحة النووية التي تسمم البيئة إشعاعياً لسنوات وسنوات، ناهيك عن سهولة استهداف المدنيين بالتكنولوجيا الحديثة. أما استباحة المدن بعد الانتصار على الجيش الحامي لها فهو لم يختلف بين اليوم والأمس، بل يمكن أن نقول أنه أسوأ الآن إذ أننا ندعي وجود قوانين دولية لتمنع مثل هذه الشناعات، قوانين تُطبق فقط على المهزومين من القادة، مما يجعلها جزءاً من الترسانة العسكرية للدول المتقدمة لا وسيلة لإقامة العدل وكفّ الشرور. يمكننا أن نرى أيضاً اختلاف مفهوم الحصار، سابقاً تتطلب الحصار نشر الجنود باستراتيجية حول المُحاصَر لمنع وصول الطعام إليه حتى يستسلم، لا داعي لهذا العناء مع آلية العقوبات الاقتصادية. في الحصار سابقاً عانى الجميع من انقطاع الإمدادات أما اليوم فقد تتمكن الطبقة الحاكمة - إن كانت فاسدة- بحكم اتصالها اقتصادياً بمصادر خارجية من الحفاظ على صحتها المادية، بينما يجوع المواطن الذي لا شأن له بقرارات حكومته وبالطبع لا قدرة له على مواجهة قرارات الحكومات المعادية التي نصبت هذا الحصار لإرهاق حكومته.

ميتافيزقيا التكنولوجيا[2]

يمكن تشبيه الإنسان سابقاً محاطاً بالطبيعة بنا في محيطنا التكنولوجي، كلا المحيطين وفقاً لإلول يمنحان الحياة ويهددان الفرد في الوقت ذاته، كلاهما يُمثّلان قوى مخيفة. عن جون ويلكنسون عن إرنست ينغر، التكنولوجيا هي الميتافيزيقيا الحقيقية للقرن العشرين. سأحيد قليلاً عن كتابات إلول وكازنسكي للتعقيب على هذا التعليق. يمكننا النظر للطبيعة الميتافيزيقية للتكنولوجيا من عدة وجوه، سأذكر اثنين منها، الأول هو الخطر المتعلق بمحيط خلقناه تطويعاً لمحيطٍ بيئي متمثلاً بالكِبر المعاصر الذي لم ينل من الإنسان سابقاً، الطبيعة بأخطارها وبجمالها استحقت التعظيم وسحرت الألباب، ولا عجب من ارتباط الظواهر الطبيعية بالآلهة والأساطير الوثنية عن غير وجه. أما الآن فنحن عندما نعاين الطبيعيتين المحيطتين بنا (البيئية والتكنولوجية) نجد إما ما غلبناه على أمره (البيئة) أو ما صنعت أيدينا (التكنولوجيا)، صورتان لتفوّقنا على المحيطين وعبر ذلك على أجدادنا. نظرتان تبثان التعجرف والظلم، صفتان ليستا قبيحتين فقط من الناحية الأخلاقية وإنما واقعياً باتتا تُبرزان شواهد تُنذرنا بكارما بيئية أو تكنولوجية ستنال منا عاجلاً أم آجلاً. التعجرف يمنعنا من تمييز تلك الشواهد، مم نحذر ونحن من نجرّ السُحب ونطلي المحيطات بسواد النفط عندما نسهو؟

هذا التعجرف يمتد لفهم الإنسان في العصر السابق للثورة الصناعية وتصور من سبقه من البشر كإنسان بدائي جاهل، فهو ذاك المؤمن بالسحر مثلاً (السحر وفقاً لإلول عن ماسون أورسيل مصدر "التقنية" أو أول تعبيرٍ عنها) أما الإنسان المعاصر المتقدم الفهلوي أكبر من تلك الخزعبلات. العلوم والتقنيات والتجارب النفسية في القرن الماضي في الدول المتقدمة وبسبب الصراع الدامي اعتنت بالتلاعب بأفكار وغسل الأدمغة، ووصلت بدرجات مختلفة ومخيفة إلى تقنيات من الخداع وقولبة الآراء، يجدر بالذكر أن إحدى هذه التجارب[3] التي تركزت على الاستجواب أجريت على تيدِ كازنسكي نفسه وطلبة آخرين في جامعة هارفارد.

يختم[4] ويليام سارجنت كتابه "معركة من أجل العقل" Battle for the Mind بتنويه مهم "مع أن البشر ليسوا كلاباً، عليهم أن يتواضعوا بتذكير أنفسهم كم تتشابه وظائف أدمغتهم وألا يتبجحوا بأنهم أنصاف آلهة". هذه النتيجة العامة في كتاب عن الوسائل في التأثير بالأدمغة بطرق مختلفة من تقني عمل في هذا المجال. الإنسان سابقاً كان يؤمن بالسحر وبالتالي يحاول إتقاء شروره، أما الإنسان المعاصر يظن أن السحر خرافة لن تمسه ناسياً تقنيات التلاعب بالأفكار التي لا تختلف كثيراً عن السحر الأسطوري من حيث أنها ترسم خيالات فوق الواقع في عين الناظر. من باب التشبيه بأثرٍ رجعي يمكننا القول بأن سحرة فرعون هم موظفون في وزارة البروباغندا. الإنسان سابقاً ارتدى التمائم واستعان بالمشعوذين لدفع الأذى السحري، ربما لم يحتج لذلك لكنه على الأقل تواضع ليدرك أنه بحاجة إلى حماية، إنسان اليوم يجلس أمام الشاشات لساعات يمتص فيها كل موجات الدعايات ونشرات الأخبار والمسلسلات ويؤمن -من كل عقله- أنه قادرٌ على الثبات على الحق وفهم العالم كما هو، أنه حرٌ مستقل في تشكيل رأيه الخاص، حرٌ في اتخاذ قراراته. ما هي سوى صدفة شراؤه ما تعرض عليه الدعايات ورغبته بتقليد المشاهير بأزيائهم أو الممثلين بأدوارهم وتكراره لما نقلت له وسائل الإعلام من تحليلات سياسية. الهستيريا عند ذكر بعض الشخصيات أو الآراء السياسية في عصرنا تذكرني بمشهد "دقائق الكراهية" من فيلم 1984. الفرق هو اقتناع الإنسان المعاصر الذكي بأن كرهه لشخصيات سياسية هو من دواعي إنسانية بحتة لا من متابعته لدقائق الكراهية بصورتها الواقعية لا الخيالية[5]. مع ما تتضمنه من لزوم إخفاء من لا يتفق مع البروباغندا لنظرته كي لا يتكالب عليه القطيع الغاضب أو يكتشفه مخبرو الدولة، مما يحضرنا للوجه الثاني بما يخص ميتافيزيقية محيطنا التكنولوجي. القوى الصعلوكية حولنا: المرء سابقاً نظر إلى الأشجار والحيوانات ورأى فيها أرواح آلهة وأجداد، نحن العباقرة أذكى من ذلك. لكننا ننظر إلى أعين الكاميرات في كل مكان وندرك أننا مراقبون لا من ملائكةٍ من نورٍ يعملون لربٍ عادلٍ، بل يراقبنا بشر من طين يعملون لأنظمة ظالمة. نستشعر تنصت الهواتف علينا، جهة استخباراتية أو موقع تواصل اجتماعي يخيّط لنا الدعايات لتتناسب مع ما نقول، نرتعب من تلقف الخوارزميات لنا. منشوراتنا قد تدرس لفهم حالاتنا النفسية، تجارب قد تُجرى علينا، لا ابتلاءاً من إله كي يمنحنا الجنة، بل تلاعب مجموعة من التقنيين النفسيين للوصول إلى نتيجة كي تستخدمها الحكومات والشركات لاحقاً في تسييرنا وفق أهوائهم.

وجد المرء نفسه سابقاً محاطاً بطبيعة لا يفهمها فقدسها. مع تعقد التكنولوجيا تتكاثر حولنا أدوات لا ندرك كنهها، تحيطنا فيه آلات لا ندري كيف صُنعت ولا نستطيع أن نصنعها كأفراد، أعمدة كهرباء بدلاً من شجر وزقزقة شاحنات بدلاً من عصافير. ولا أدري فربما سيأتي أقوامٌ يعبدون التكنولوجيا كما عُبدِت الطبيعة لكن شتان بين من خلق الطبيعة ومن خلق التكنولوجيا. أجداد تلك الأقوام بيننا اليوم يبجلون العلوم والإمبريقية ويرون في التطور التكنولوجي انتصاراً للعلمانية والتنوير على الدين وأي عقيدة.

غشاوة البروباغندا وفضاء الإنترنت

لجاك إلول كتابٌ عن البروباغندا من أفضل ما قرأت عن هذا الموضوع من الناحية التحليلية. حاولت بتواضعٍ التطرق بطريقة خيالية إلى هذه التقنية المهمة في عصرنا في رواية "صحراء الواقع" في كتاب "المخيلة: الشظية الأولى" ورواية "فوق الوعي" التي سأنشرها مستقبلاً إن شاء الله. الموضوع يتطلب مقالاتٍ وأبحاثاً برمتها لكنه هنا يستحق الذكر فالبروباغندا إحدى أهم التقنيات التي نتعرض لها بشكلٍ يومي دائم.

يشير إلول إلى عموم البروباغندا وتسربها إلى شتى مناحي الحياة اليومية، في الطريق تلاقيك اليافطات وتستمع إلى الراديو، رسائل مبطنة تُخلَط مع ترفيهك في الأفلام والمسلسلات، زِد إلى ذلك الإعلانات التي تحفّ المواقع على الإنترنت أو تتربع في منتصفها، أو روابط إلى صفحات الويكيبيديا تحت مقاطع اليوتيوب كي يتأكد مُلّاك الموقع من أنك لن ترتكب جرائم فكرية. إلول يقول أن البروباغندا عليها أن تنتشر كما ينتشر الهواء وأن تصبح عنصراً من عناصر الطبيعة، أن تسري بأكثر الطرق سلاسة وخلسة كي يصدق الفرد انعدام البروباغندا، لكنه في الحقيقة غُمِر فيها كسمكة في المياه.

كيف نتفادى هذا؟ بالنسبة لإلول كل ما ليس بتقنية يُقصى في النظام الحالي، في تحدي التقنيات لا معنى من الاتكال على الدين أو الثقافة أو تعليم المجتمع، لا يفل البروباغندا إلا البروباغندا. تيد كازنسكي يرى أن مواجهة البروباغندا للأنظمة بالبروباغندا ستفشل إلا إن امتلكتَ ما تمتلكه الأنظمة من مليارات الدولارات، لذا على الحركة الثورية ضد التكنولوجيا البحث عن طرقٍ أخرى لتترك بصمتها، أو صدمتها.

جاك إلول توفي وتيد كازنسكي سُجن قبل شيوع الإنترنت، هناك الكثير مما يمكن قوله على صعود الإنترنت وربما سيذكره المؤرخون في المستقبل كأنه ثورة من نسيج الثورة الزراعية والصناعية. لإتمام محور البروباغندا يمكن أن أذكر بعض ما يتصل بالإنترنت منه، أسمع الجزيل من المديح بالإنترنت لقدرته على حمل كم مهول من المعلومات مجانيٌ انتشارها سهلٌ الوصول إليها، وصحيح أن المعرفة قوة كما قال فرانسس بيكون لكن المعلومات لا تعني المعرفة، في المنظور الإسلامي هناك ما يُعرف بعلمٍ لا ينفع نتعوذ بالله منه. التساؤل الذي يجول في بالي من الناحية السياسية، هل يمكن أن يكون الكم المعلوماتي الإنترنتي نداً للبروباغندا أم أنه الكثير من اللاشيء؟ أو أسوأ من ذلك، وهم المعرفة في عصرنا يجعلنا في الواقع أكثر جهلاً ممن سبقنا المتواضعون بتقدير معارفهم.

كالبروباغندا المنتشرة في كل الأرجاء، تنتشر على الإنترنت منشورات ومحفزات بصرية وسمعية كأنما تفيض على شاشات الهواتف، لا ندرك بعد تماماً آثارها على نفوسنا لكننا نحس باضطرابنا بسببها، فهي تشابه الإدمان على التفاعلات الكيميائية التي تولدها المخدرات وتولد تتابعاً لحالات نفسية مُرهِقة ومفاجئة لا مثيل لها في عالم ما قبل الإنترنت. يتلو منشورٌ عن نجاح قريب منشوراً عن موت رفيق، بين النكات والميمات أخبارٌ عن فظائع ومجازر، أفكارنا ومعتقداتنا تحت تهديد مستمر. تقديرنا لنفسنا موضع سؤال مع كل نجاح أو فشلٍ نراه. بدلاً من التنافس مع مجتمع صغيرٍ حولنا نرى أفضل ما تقدمه البشرية في كل مجال لتصفعنا إنجازاتهم برتابة حياتنا. كل موقع وتطبيق هاتفي يضعك في حالة نفسية مختلفة وبسهولة إزاحة التطبيقات بأصابعنا تُزاح مزاجاتنا ومشاعرنا وأحوالنا النفسية. نعم هناك ما هو جميل لكن جمالية العالم الافتراضي تأتي من قبح العالم الواقعي الذي يحَتِمل تكنولوجياً خلق هذا العالم الافتراضي. نعم هناك الكثير من الفائدة، يقابله تحوّلٌ لا نفقهه ولا ندري مآله في تراكيب عقولنا. الفرد منا يملك في جيبه كنزاً من المعارف، كنزٌ يغرينا لنغوص فيه ونعتمد عليه اعتماداً يتفاقم مع الوقت وبتسارع طردي لنصبح عاجزين على العيش دونه، لنعود للنقطة الأساسية في هذا المقال، انعدام حريتنا باتكالنا الكلي على التكنولوجيا. بدلاً من أن نعرف ما اسم النبتة التي أمامنا نحتاج إلى حزمة بيانات وتطبيق وهاتف بكاميرا ليخبرنا عنها. بدلاً من معرفة الطريق علينا الاعتماد على خرائط غوغل. وبالطبع الشوارع بحاجة إلى معرفة متجددة لأنها والدوارات والتحويلات أشياء يتحكم بها مجموعة صغيرة من المهندسين والبلديات التي لا قوة لنا كأفراد في التأثير بقراراتها. ولأن النظام الصناعي بانفجاره السكاني يعني بالضرورة تضخم وتشوه المدن بشكل مستدام.

مباركٌ لنا قدرة أيٍ منّا التعلم عن ميكانيكا الكم وقطة شرودنجر وتاريخ الكون ونظرية التطور، لكن لمن لا يدرس الفيزياء أو الفلسفة أو البيولوجيا، لا أدري كيف يؤثر ذلك على نشاطاتنا اليومية ومعاملاتنا وأخلاقنا ويساعدنا على إيجاد حلولٍ مباشرة لمشاكلنا السياسية والاقتصادية والتقنية لكن مباركٌ لنا على أية حال. الآن سأنهي الجزء الأول من المقالة لأتابع الأخبار كي تلقنني كيف أفكر ومن علي أن أكره وما علي أن أحب.

الهوامش

[1] https://secondnaturejournal.com/the-betrayal-by-technology-a-portrait-of-jacques-ellul/

[2] هذه الفقرة كتبتها قبل قراءة كتاب ديفيد سكربينا عن الموضوع، في الفقرة ذكرت احتمالية انتشار الفكر الأرواحي، أي رؤية الأرواح في التطورات التكنولوجية كامتداد لميتافيزيقيا وثنية. وجدت أن السيد سكربينا كشخص لا ديني يدرس ميتافيزيقيا التكنولوجيا قد وصل إلى نظرة أخرى مشابهة وهي نظرة الروحية الشاملة. طبعاً هي نظرة فلسفية بالدرجة الأولى لا دينية أو وثنية. هناك ما يستحق قوله إزاء هذا الموضوع لكن مكانه ليس في هذا المقالة.

[3] https://www.theguardian.com/theguardian/2000/jun/22/features11.g2

[4] William Sargant، Battle for the Mind: A Physiology of Conversion and Brain-washing، 239

[5] هناك غضب جماعي مبرر من مجرمي الحرب. لأوضح الفيصل الدقيق هنا لننظر إلى صدام حسين والحرب ضد العراق. نعم صدام مجرم حرب استخدم الأسلحة الكيماوية ضد الأكراد والإيرانيين. لكن لم يكن ذلك هو سبب احتلال الولايات المتحدة للعراق. في حرب الخليج الأولى استخدمت مراهقة لتكذب في مرافعة أمام لجنة أمريكية وتزعم أن جنوداً عراقيين قتلوا أطفالاً كويتين لسرقة الأجهزة الطبية للخداج. تبيّن لاحقاً أنها ابنة السفير الكويتي في الولايات المتحدة. في حرب الخليج الثانية التي دمرت العراق وأفرزت داعش لاحقاً ظهرت كذبة أسلحة الدمار الشامل. فرّق بين كره الشعب الإيراني والكويتي لصدام لأنه بالفعل عرّض حياتهم للخطر وبين كراهية الشعب الأمريكية لصدام على الرغم من عدم تهديده لهم بأي شكل. أي هراء عن إنسانية في هذا السياق وفي كل السياقات المشابهة تخفي حقيقة ما حدث إثر تلك الموجة من الكراهية البروباغنداوية. كل الضحايا والدمار الذي لحق بالعراق من الحرب، من العقوبات الاقتصادية قبلها ومن آثارها. هل كانت الإنسانية هي حقاً المحرك لكراهية الشعب الأمريكي لصدام؟

التكنولوجيا كقوة ماسِخة

إلون مَسك يزعم[1] أننا تحولنا إلى سايبورغات باستخدامنا الهواتف الذكية والإنترنت واعتمادنا عليها، ويطمح لتسريع نقل المعلومات لتنبث مباشرة إلى عقولنا بدلاً من الحاجة إلى استخراجها من الهاتف "ببطء" ولاحقاً لنصل إلى مرحلة "تحميل" عقولنا على أجهزة حاسوبية. هذا التحوّل الذي يبشّر به إلون مَسك ومن لف لفّه يدعو إلى إعادة النظر ب"طبيعة" "الإنسان" عند البعض، بينما دفع المفكران اللذان تتناولهم هذه المقالة للتساؤل عن طبيعة "التكنولوجيا" ومصائرنا في ظلّها، هل ما يحصل وسيحصل تطور يُنتِج كائنات أعظم أم طفرة تقنية تجعلنا مسوخاً توجهُنا التكنولوجيا إلى مستقبل كارثي؟

المَسخ البشري: من تحولٍ بسيط إلى كائنات تكنولوجية وجينية غريبة علينا

قبل التحدث عن المَسِخ بأقصى درجاته التقنية والجينية لنبدأ بالتحولات الطفيفة والتدريجية الخاضعة لطبائعنا، تغيرات تمس وتلوي كل مجالات الحياة. جاك إلول يشير إلى تقلص الزمان والمكان والحركة، اللغة متغيرة بطبيعتها لكن التقنيات تغيرها بطريقة أقسى، حتى الرفاهية لم تنجُ من التكنولوجيا ولن تُستثنَ المفاهيم الاجتماعية من المسخ وفقاً لكازنسكي. العالم سيتوحد في حضارة تقنية ويفقد تنوعه والبيئة سَتُمسخ حتى تنعدم كل أشكال الحياة المعقدة بيولوجياً عليها. احتمالٌ آخر هو نجاة كائن تطور جينياً بطريقة مدروسة ليتأقلم مع العالم المستقبلي، لكنه لن يكون "الإنسان" كما هو الآن. الخطوات الأولى في ذلك الاتجاه نجدها في الصين مع محاولة خلق هجين بين البشر والقرود.

الجانب الزمني في حياتنا تحكمه الساعة والوقت المجرد المرسوم بعقاربها، سابقاً انسجمت وتيرة الحياة مع البيئة (الليل والنهار، أجراس الكنائس، أذان الصلوات الخمس) أما الآن ننام ونستيقظ ونرتّب نشاطاتنا لا وفق حاجاتنا الجسدية أو البيئة حولنا وإنما على صرير المنبه. عندما نستيقظ نستغرب لأننا لم ننل ما يكفي من الراحة مع أننا نمنا "عدداً كافياً" من الساعات. لا نأكل عندما نجوع بقدر ما نعوّد أجسادنا على أن تجوع عندما يسمح الوقت لنا بالأكل (ساعة الغداء عند العمل). في آخر الليل بدلاً من أن ننام فور استلقائنا نمضي ساعاتٍ نتقلب في السرير.

نُجزل بالعادة الشكر لوسائل النقل المتطورة التي تطوي المسافات بسرعة خاطفة ونسبّح عندما نقارنها ببطء الدواب التي تنقّل عليها الأجداد. جاك إلول يشير إلى المفارقة الحاصلة على أرض الواقع بين المسافات التي تلاشت أمام التكنولوجيا وبين المساحات المتقلصة التي تتفضل علينا التكنولوجيا بالعيش فيها. أولاً يذكرنا بأن عدد الذين يسافرون بالطيارات قليلٌ مقارنة بالأغلبية في أي مكان، وأن المرء يُحشر معظم حياته بسبب الاكتظاظ السكاني والطبيعة العمرانية للمجتمعات الصناعية. سابقاً كانت هناك مساحاتٌ شاسعة تحيط الإنسان ويرى فيها امتداداً لا متناهياً -بنظره- للطبيعة، أما الآن نتراكم في عُلبٍ إسمنتية للسكن وأخرى فولاذية أثناء تنقلنا. لنتذكر أيضاً كل الوقت الذي وفرناه بالتنقل والوقت الضائع في الأزمات الخانقة. ولا داعي لأن أكرر نقاط الجزء الأول عن حوادث السير وأثر التنقل على حريتنا في استخدام أقدامنا. يمكن إعادة ذكر نقطة الانتقال من أجل العمل والغربة التي يعيشها -ويحلم بها- خريجو الجامعات الأردنية للإشارة للمساكن التي يستأجرونها فهي في معظم الأحيان مشتركة تعطيهم مساحاتٍ وخصوصياتٍ أضيق من تلك التي تركوها في بلادهم.

حركات النزوح وموجات الهجرة المعاصرة (تغيرات جبرية جمعية مكانية) أيضاً سببها حروب بأسلحة تجعل استمرار العيش مراهنة على مسقط الصواريخ والقنابل بغض النظر عن الجهة المنتصرة، السبب الآخر هو التنقل لحاجات اقتصادية كما يتغرّب الخريج في الخليج وكما يقامر من أجله الكثيرون بحياتهم على قوارب الهجرة غير الشرعية. الأردني ليس الوحيد المُقتلع من أرضه لضرورات جني المال في العالم الصناعي، فهو يلتقي في بلاد الخليج بوافدين من كل الدول والثقافات. ذكرت في الجزء الأول من المقالة هذا التنقل من

باب مسحه لحريتنا بالتواجد وجبرنا على التنقل وفق الحاجات الصناعية، هناك جانب آخر وهو الجانب اللغوي من ثقافة العمل التقني. بالنسبة لإلول تُلوى اللغة بطريقتين، عبر انعدام الحاجة عند بعض أفرقة العمل بدرجة متقدمة من التواصل اللغوي كي تتم المهمات، في الإمارات التي تجمع ثقافات مختلفة فقط من أجل العمل ابتُدِعت لغة[2] هجينة بين العربية والإنجليزية والأردية والفارسية (عندما سمعت التركيب اللغوي "خَلّيولّي" للمرة الأولى حسبته بالأردية). الطريقة الثانية تُفرّق بين أصحاب اللغة ذاتها بسبب حواجز التخصصات، لكل تخصص لغة اصطلاحية تتعقد مع الزمن وتُصعّب على أصحاب التخصصات المختلفة التواصل فيما بينهم بما يخص وظائفهم. لاحظ النقاشات بين أصحاب التخصصات المختلفة، عند الخوض في موضوع العمل يضيع جزء من النقاش فقط لشرح تفاصيل العمل وتبسيطها كي تصل العبرة أو النكتة، كما لو أنها ترجمة بين لغات. لنتحدث قليلاً عن خصوصية باللغة العربية.

الهُجنة اللغوية العربية

هناك خصوصية لآثار التكنولوجيا والتقنيات على اللغة العربية لعدة أسباب، الموضوع معقد وبحاجة إلى تفصيل لا تسمح مساحة المقالة بنثره، سأحاول المرور على أثرين مقترنين بتقاطع العالم الصناعي واللغة العربية.

اللغة الإنجليزية هي اللغة المهيمنة في عصرنا، معظم الوظائف تتطلب درجة أو أخرى من إتقانها، حقيقة لا أستطيع أن ألومها كلياً على التاريخ الاستعماري بل أعزوها أيضاً إلى الحاضر الاقتصادي والصناعي للدول الناطقة بالإنجليزية.

مثال على الأثر الأول والمباشر لالتقاء التكنولوجيا مع لغة من ثقافة لم تصنعها هو كتابة الفرانكوعربية (العربيزية، أي استخدام أحرف إنجليزية وأرقام لكتابة العربية في الرسائل وعلى الإنترنت). يرى البعض قلة استعمالها بعد انتشارها انتصاراً للعربية على هذا النوع من التهجين أو انعكاساً للوجدان عند الشعوب العربية الذي سطع في ما عُرف بالربيع العربي. للأسف نظرتي أقل انبهاراً. أعتقد أن الظاهرة مرتبطة بالتكنولوجيا المتاحة لا أكثر; لم تسمح أزرار الهواتف بالكتابة بالعربية أو سمحتها بصعوبة سابقاً لذلك تأقلم الشباب العربي بابتكار العربيزية، لكن التكنولوجيا سرعان ما سهّلت كتابة الحروف العربية و أتاحت مؤخراً التشكيل أيضاً مما قلل من الحاجة للفرانكوعربية. المعادلة هي تكنولوجية بالدرجة الأولى في نظري، لا لسحرٍ كامنٍ في العربية ولا لوجدان العرب فالثورات كانت ضد عرب ولا وجود لأي قيم قومية في شعاراتها. ولو توقفت الشركات عن إصدار هواتف وحواسيب بأزرار عربية ستسطع الفرانكوعربية مجدداً.

الأثر الثاني ينتج من *اقتحام الإنجليزية* عقولنا مع *انفصام العربية* فيها (بين العامية والفصحى). أما الاقتحام فهو غير مسبوق بين اللغات، لا يوجد مثيل للتلفاز في حضارات قديمة لذلك لم تتواجد إمكانية انهدار ثقافة في مجاري ثقافة ثانية بالصورة الحالية. قِصر الوقت بعد العمل، أزمات التنقل، الضجة النفسية المرتبطة بالوظيفة والمحيط الخارجي، كلها عوامل تدفع الإنسان ليهرب بذهنه بعد العودة من الوظيفة المضنية. لا يمكن أن يتفسح في الطبيعة لكن لا بأس فالتكنولوجيا فتحت له مساحات ترفيهية شاسعة مثل الأفلام والمسلسلات والإنترنت. مجمل ما ينساب إلينا من كلمات في أغلب هذه النشاطات هو بالإنجليزية، ومن الطبيعي أن يؤثر ذلك على طرائق تفكيرنا وتوجهاتنا وثقافتنا، وتهجين اللغة بل مسخها بسرعة مرعبة تظهر بالتباين بين أجيال متتالية.

أزعم أننا قادرون دون أن نلغي عادة متابعة الأفلام والمسلسلات وتصفح الإنترنت وحتى قراءة الكتب والروايات الأجنبية ودون أن نتفوق عسكرياً واقتصادياً بناء سدٍ لغوي يحفظ نقاء العربية، النقاء اللغوي المطلق مستحيل ويتعارض مع طبيعة اللغة بتجددها المستدام، لكن ما أعنيه هنا نقاء نسبي تتطور فيه اللغة بالتروي المعهود. السد نبنيه من وسائل تعليمية وترفيهية ككل ما سبق ذكره لكن بلغتنا، بالترجمة (أعني ترجمة الكتب فقط، أما الوسائط الصوتية يجب أن تُدبلج) أو بخلق ما ينافسه محلياً أو ما يعوّض عنه.

الانفصام بين الفصحى والعامية ليس جديداً لكنه ملك سابقاً رفاهية عدم تأثره بأي لغة بقسوة تأثر لغة اليوم بالإنجليزية، الترفيه والمعلومات الإنجليزية عندما تدخل عقولنا تقف أمامَها لغتان، إحداها عملية شائعة (العامية) وأخرى معقدة رسمية (الفصحى). كل شيء في الطبيعة يسلك الطريق ذا أقل مقاومة لذا تمتزج اللغتان اللتان تألفهم الأذن، أي الإنجليزية والعاميّة، ثم تحيد هذه اللغة الهجينة أكثر فأكثر عن الفصحى.

الكثير من المختصين باللغة الفصحى -سأعتبرهم في سياق هذه المقالة تقنيين لغويين- ينزعجون من عدم حفظ العامي كل قواعد العربية عند استخدامه لغتهم ومن امتزاج العاميّة بالإنجليزية لكنهم لا يبحثون عن حلول للانفصام والتهجين، إلا إن افترضنا أن حلهم هو التندر بتفاصيل اللغة وتصويب الأخطاء الشائعة. لست مختصاً باللغة لكن أظن أن هناك نقطة إحصائية ينقلب فيها الشائع إلى العُرف وينسخ المعاصر المهجور. لا أثبط همة الدائبين على هذا التصويب فهو مفيدٌ ومسلي لكنه مرحلي على أحسن تقدير والحفاظ على اللغة يحتاج لمنهجية جذرية لا تلقيناً مستمراً للبالغين مهما تأخرت أعمارهم. مثلهم كمثل شخصٍ يسعى لإخماد بركان بسكب فناجين ماء فيه، أو ربما هناك جانب من صنيعهم يفوتنا هنا، ربما الهدف لم يكن أبداً نشر الفصحى، فلو انتشرت لفقد هؤلاء الكثير من قيمتهم المجتمعية والثقافية

ووصايتهم الفكرية على الروايات والمقالات. ظاهرة تعليم اللغة والبرامج المتعلقة بتفاصيل لا مكان لها في الحياة العملية ظاهرة خاصة بالعربية تؤكد انفصاماً مميزاً في عقول أهلها.

هذا الانفصام له معاني تقنية قد تفوت البعض، الفصحى الآن -وربما دائماً- لغة اختصاص لا لغة استعمال يومي، ويجري عليها ما ذكرناه سابقاً من تشتت اللغة الإصطلاحية بين أصحاب التخصصات المختلفة، المحاسب والمهندس والصيدلاني لا يملكون الوقت لاختصاص فرعي في الفصحى ولا تقتضي وظائفهم تلك الحاجة، والرد بأن الفصحى هي لغتهم ردٌ قاصرٌ يحاول أن يُعمّم التخصص وهذا تناقض. ما المعنى من أن نخبر أحدهم أن يتعلم لغته؟ ما هي تلك الأصوات التي يصدرها في حواراته اليومية إن لم تكن لغته؟ بعيداً عن رومنسية الفصحى وعلى أرض الواقع نجد أن لغة الجميع هي العربية العامية وهم يتقنونها بالسليقة دون أي مرجع وأي دراسة أو الحاجة لمتابعة "دقائق اللغة" وما شاكله من برامج تدريس الكبار "لغتهم". الحل لا يأتي بتلك البرامج بل بتعريب المناهج التعليمية في الجامعات كخطوة أولى ورعاية المدخلات الثقافية للجميع في حياتهم اليومية لا فقط في وظائفهم أو معاملاتهم الحكومية. ولا داعي أيضاً للمبالغة في وصم من تأثروا بالإنجليزية بعقدة نقص أو انهزام في نفوسهم، علينا ألا ننسى طبيعة النشاطات اليومية وقدرة العادة على قولبة الشخص. عاداتنا الترفيهية والشروط الوظيفية ستمسخ اللغة مهما اعتز الرجل بعروبته. ربما حان الوقت للعرب بأن يترجلوا عن فرس الوهم بتميز عقولهم وسماحها لهم حمل لغتين للتعبير عن ثقافتهم، أو ربما قُدّر لنا أن نعدو إلى الجحيم الحضاري على ذاك الفرس.

لو افترضنا أن حالة اللغة العالية كانت كذلك دوماً ولم تتأثر بتعاليها عن العوام فالمسألة في يومنا لا تنحصر على العوام، آثار اقتحام الإنجليزية وامتزاجها مع العامية تتسرب إلى كُتّاب المقالات والروايات لأنهم مجبورون على دراسة الإنجليزية إن هم أرادوا النهل من المحتوى الإنجليزي المعلوماتي الوفير، تستطيع رؤية تلك الأثار في الصياغات الآوية (علمانوية، إسلاماوية، ثقافوية) الناتجة عن صيغة الisms (الإزَمِيّة؟) . دون حلول للاقتحام والانفصام سيستمر هذا النسق الماسِخ، ما يصلنا لا يقتصر على الإنجليزية فحسب، ستتفرق التطلعات والهويات فنجد من يمجد أرطغرل بجانب من يستحسن سِير أعلام السوبرهيروز. أو في ظروفٍ مشبوهة يُقدَم لنا مركب فني عجيب مثل مسلسل جِن، فيه أبناؤنا يتكلمون بلغتنا ويتلون نصّاً مترجماً ترجمة مباشرة كسولة.

بدلاً من التفكير بإنتاج محلي خالص يدعو فريق للقبول بهذه المركبات المهجنة ويفرحون لاستفزازه قيم أغلبية المجتمع، فريق آخر يريد تفعيل الرقابة ومنع كلّ شيء تحت الشمس، ثم يستهجن هذا الفريق توجه الفريق الأول لمصادر ترفيه خارجية بعد منع كل ما هو محلي مُستحق للمشاهدة أو القراءة.

مما يحضرنا لمفارقة تقنية ثقافية أخيرة عند الدول المتواضعة تكنولوجياً، فمقص الرقيب في هذه الدول أداة تصل رقبة المحلي فقط لكنها لا تتمكن من صد التأثير الخارجي، مما يُفقد قرارات المنع مقصدها لو كان الهدف منها الحفاظ على ثقافة المجتمع. حتى لو كانت قرارت سياسية دون الاكتراث بالثقافة (منع ما هو محلي إذا مسّ بالمؤسسات المحلية مثل فيلم إن شالله استفدت) فهي ستنجح بتثبيت ذاتها لفترة قصيرة لأن ثوابتها لم تُمَس. لكن ما سُمح له بالدخول بالإنجليزية ينتقص ثوابت ثوابتها العقدية التي ستنهار حتماً عندما يكتمل نصاب تأثير مجتمعٍ قائمٍ على ثوابت مختلفة "عنّا" علينا.

نقطة أضيفها ككاتب مبتدئ بخلفية أكاديمية علمية لا أدبية، اكتشفت أن الهوس التقني بقواعد الفصحى يثبط الإبداع عند العرب ويضرهم بثلاثة أوجه على الأقل ، كي لا أطيل في هذا الموضوع فهو بحاجة إلى مقالة منفصلة سألخصهم هنا: أولاً سيمنع هذا الهوس التقني العوامَ من الإبداع والتدوين، الخطر في ذلك هو محو جزء لا نستطيع تقديره من الذاكرة الجمعية، من واقع وخيالات الأجيال، مما يصعب بناء الهوية ويسهل تكرار الأخطاء. ثانياً سيجبر الكتّاب على العودة إلى مصادر محدودة مما يحدهم ذهنياً وزمنياً مقللاً المساحة الإبداعية. كما أن التركيز على القواعد أثناء الكتابة سيأخذ من القدرة الذهنية نصيباً كان من الأفضل بذله على الإبداع القصصي، إضافة إلى كراهية الإبداع اللغوي لأن العضلات اللغوية يبرزها الكاتب بحمل القواعد لا بكسرها. ثالثاً يضع هذا الهوس فخاً للكتاب والقراء، جمالية الفصحى ستغوي الكاتب ليصيغ كلمات بطريقة شِعرية لا نثرية، أي سيكون التركيز على المظهر لا المحتوى. أما القارئ فقد تخدعه اللغة الجميلة ليعتقد أنه قرأ شيئاً ذو قيمة لكنه في الحقيقة انبهر بوقع الكلمات على أذنه لا بما أشارت إليه في وعيه وما أفضت إليه من معاني مكثفة.

الترفيه كغذاء روح المسوخ

لم يدرك كازنسكي مسلسل بلاك ميرور ليخبرنا عن رأيه فيه، لكنني سأتطوع وأدرجه تحت ما سبق من الخدع النفسية للنظام التكنولوجي، بدلاً من التحذير من التقدم التكنولوجي السافر بجدية يُعمل على استغلال إحساسنا بالغربة وتوجسنا من مستقبل سوداوي لنُعطى صورة مبالغة من أرقنا كي ننام قريري الأعين ونصحو باكراً، وفق المنبه، لنكمل عملنا المطلوب كي تستمر العجلة التكنولوجية بالدوران. الخدعة ببساطة هي أن الصورة السوداوية تُقدّم لنا كترفيه لا كتحذير حقيقي. في العالم التكنولوجي لا منابر للتوجيه وإنما موعظات بقوالب ترفيهية تدغدغ طيف مشاعرنا ومتطلباتنا النفسية، وعندما تعتمد أجزاء من نفسياتنا على هذه المتنفسات ننزعج من

انسدادها. انزعجتُ من نهاية حلقة "راتشيل، جاك وآشلي أيضاً" لأنها نهاية سعيدة ونهاية وضعت الحل في يد التكنولوجيا، ولست الوحيد المنزعج من توجه المسلسل هذا. لنراجع ما قيل للتو، لقد أزعجتنا النهايات السعيدة لحلقات مسلسل موضوعه الأساسي تصوير مستقبل سوداوي للتطور التكنولوجي.

لو أخذنا خطوة للوراء نرى أن الطرح بكامله يتعلق بماهية الترفيه المرئي دون أن نتساءل عن ضرورة الترفيه بهذه الصورة أصلاً أو الحاجة لهذه الدرجة من الإشباع منه. الكاتبان يشيران إلى ضرورة الترفيه للهرب الذهني في عصرنا، كازنسكي يرى أن الترفيه من إحدى الأدوات النفسية للنظام التكنولوجي، فهو يفسح المجال لهرب الفرد من واقعه البائس ومن الحالات النفسية العصية كالأرق والضغط والإحباط، يذكرنا بأن الإنسان سابقاً مع انسجامه مع ذاته وطبيعته لم يجد مانعاً من الجلوس لساعات دون أن يُشغل ذهنه أو ذراعيه بأي شيء. الإنسان المعاصر عليه أن يبقى منشغلاً ومُرفها دون انقطاع وإلا يأكله الملل ولا يذوق راحة في وقت راحته. ما السر في ذلك؟ هل نهرب من خوائنا في خلوتنا؟

يتفكك المجتمع في جدله حول ترفيهه وتتفكك كل القيم المميزة للمجتمع، ليحل محلها قيم لمجتمع تقني لا يكترث بأي رابطة أو علاقة أو قيمة لا تساعد في كفاءة الإنتاج والتنظيم البارد. وعلينا أن نتنبه لأن القيم التقنية في صورتها الحالية ليست قيماً غربية تماماً، فهي تعمل على تحويل الدول الغربية بطرقٍ أخرى لا مجال للحديث عنها الآن، فقط أريد التنويه لأن الصراع ضد التكنولوجيا ليس صراعاً بين الشرق (الأوسط) والغرب بالضرورة، الثقافات ستذوب في بعضها، كما ذكرنا في مثال اللغات الهجينة وسنذكر آثار ثانية في الجزء الثالث.

إحدى القيم التكنولوجية الأساسية هي حرمة التوقف عن الإنتاج والتقدم، لا نتوقف ونسأل أنفسنا "نحو ماذا نتقدم؟" تتجلى هذه القيمة في مسلسلات بامتدادها على حساب القصص، وفي الأفلام والألعاب الإلكترونية بإعادة إنتاج أفلامٍ وألعابٍ قديمة بالتقنيات الحديثة، والأفلام الإباحية بمبالغتها بالإساءة إلى أجساد العاملين فيها هذا إن لم نعتبر الإباحية ككل مرض اجتماعي تم تقنينه وتحوّل إلى أداة في يد المجتمع الصناعي ليضمن صبر الشباب على المتطلبات الصناعية المتضادة مع الغريزة الجنسية.

كل ذلك يعمل بطريقة ملتوية تجعلنا نتوقع المزيد، مبدأ الانتاج من أجل الانتاج والتقدم من أجل التقدم أصبح مسلّمة في عصرنا. فكرة توقف صناعة الأفلام لعامٍ مثلاً لا تخطر في بال أحد وكذلك فكرة تمهل الشركات في إصدار موديلاتٍ جديدة من منتجاتها، بالطبع ينتقد البعض ذلك مستاءين من جشع الشركات لكن هب لو أن ذلك حصل بالمجان فهل سيكترثون بحيثيات الإسراف التقني بحد ذاته؟

الفنون تخضع لمتطلبات الأسواق وشروط شركات الإنتاج، لا تكفي قيمة الإبداع الذاتية بل على المبدع أن يستعين بكهنة التسويق، وإن لم يجني المال فلا وجود لجهات تكفل المُبدع كما فعلت الكنيسة مع الرسامين أو تهدي الفنان العطايا كما فعل السلاطين مع الشعراء. وإن اهتمت الدولة بهم اليوم فذلك لأهداف البروباغندا أي لتسيير الشعب وفق تقنيات نفسية لا من أجل القيمة الفنية. العلوم الطبيعية مقدسة لأنها زوجة التقدم التكنولوجي أما العلوم الإنسانية فعليها التنكر لطبيعتها بارتداء ثوب الإحصائيات والتجارب والرياضيات واستخدام اصطلاحات جافة كالنظريات كي تحافظ على حرمتها. الترفيه يختلط مع السياسية ونفقد القدرة على التمييز بين زعماء دول جادين وبين شخصيات المشاهير المبتذلة الزائفة، ترمب خير مثالٍ على ذلك.

الهواتف المتنقلة والإنترنت يمسخان العلاقات المباشرة لنكتفي بأنصاف علاقات. عدا عن كل هذا هناك المَسخُ المباشر لأجسادنا والمسخ الجماعي للحضارات.

ذاكرة الجسد التقني

أما بما يتعلق بأجسادنا وتبعات التطور التكنولوجي (الطبي والجيني) عليها، يذكر كازِنسكي أكثر من طريقة يعود هذا التطور بالضرر علينا على المدى القريب والبعيد: مع استخدام الأدوية تبقى جينات ضعيفة وتتكاثر مما يرسخ الحاجة إلى الأدوية. المضادات الحيوية تقوّي مع الزمن مناعة البكتيريا مما يُصعّب قتالها. أضف إلى ذلك شبهات الأدوية النفسية، عندما يلتهي طفلٌ صغير ولا يلتزم الجلوس كالسجين في غرفة الصف لا نفكر بعفوية طفولته بل بخطورة عدم انخراطه في مصنع التقنيين، نشخصه بمرض فرط النشاط ونجبره على أخذ الحبوب لنصنع منه برغياً مطيعاً. عندما يكبر ويذهب إلى عملٍ يُشعره بالغربة ويخنقه يستنجد بتقني نفسي، لا بصديقه فصديقه أيضاً يختنق في وظيفته، ولا يتضرع إلى ربه فالكتب المقدسة لم تذكر علم النفس بصورته الحديثة والإنسان المعاصر العبقري أذكى من أن يعتمد على الصلاة والعلاقات المجتمعية القوية والتصالح مع طبيعته ليدحر هذه الأعباء النفسية. عليه الإتكال على التقني النفسي، يسرد قصة حياته وأسراره لشخصٍ غريب مقابل المال، يشخصه الطبيب ولعله يصِف له الحبوب. نسمع أصواتاً يتقدمها أصوات الأطباء النفسيين بأهمية رفض الوصمة السيئة لعيادة الطبيب النفسي، تزامن ظهور هذا الشق من الطب مع بروز أولوية الكفاءة التقنية وانتشار الحياة الصناعية المعاصرة يستحق التفكر. ربما الحل الأنجع هو بترتيب الأولويات لا بتقديم التنازلات الفردية حتى لا يبقَ منا أي خِلقة أو عادة أو حاجة إلا وتعتمد على اختراع وتقنية نفسية ودواء.

على سيرة التصوّر المستقبلي لعالم طغت فيه التكنولوجيا يمكن الإشارة إلى أعمال مثل "عالم شجاع جديد" لألدوس هكسلي و"رجل تحت الصفر" لمصطفى محمود، كلاهما يحتويان على حبوب خيالية "سوما، سعادول" وهي أدوية، أو بالأحرى مخدرات قانونية مضادة للاكتئاب والقلق مُفرزة لحالة من السعادة تأخذها الشخصيات الروائية لتبقى في حالة من بهجة دائمة وتهرب من أي شيء يؤرقها. يمكن الإشارة أيضاً لاستخدام الاستخبارات العقاقير والمخدرات في مشاريع تعذيبها وقولبتها لعقول الأسرى.

كازنسكي يحذرنا من التعديلات الجينية لاستحالة وضع قواعد أخلاقية تنظمها. القواعد والتنظيمات هذه ستقع في يد جهة معينة وبالتالي ستُطَبِق هذه الجهة مفاهيمها الأخلاقية على المجتمع برمته بطريقة تحوّله جوهرياً (تعديل تركيباتنا الجينية). كما يركز على الحرية التي ستنسحق أمام إجبار الحكومة تعديلاتها الجينية علينا وعلى أفراد عائلاتنا. سأضيف أن هذا الإجبار حتى لو لم يكن مفروضاً بالقانون سيتولد بالضغط المجتمعي، ليس من الصعب تخيل مستقبلٍ تَرِد فيه جملة "لماذا لا تملك ذراعاً ثالثة مثل ابن عمك؟". نتيجة ثانية سلبية متوقعة للتعديلات الجينية هي انفتاق طبقات جديدة وفق اختلاف الخصائص الجينية، الصراع الطبقي الجيني سيتخطى الصراع الطبقي الاقتصادي الذي كان فظيعاً مع تساوي البشر ببشريتهم. الصراع الطبقي الجيني هو صراع بين أفراد من كائنات مختلفة بيولوجياً، أنظر إلى طريقة تعامل البشرية مع الحيوانات لتأخذ فكرة عن طريقة تعامل البشر "المحسنين" جينياً مع سائر البشرية.

كازنسكي يشير إلى أن الطريق للوصول إلى عالمٍ تُقبل فيه التعديلات الجينية سيُعبّد بالنوايا الحسنة، من منا يقول لا لتعديلات تمسح الأمراض والعلل الجينية الجسدية والنفسية؟ أضف إلى ذلك أن الأخلاق والتصرفات في العالم التقني قد تُنسب للجينات وبالتالي قد يقول قائل أن التعديل الجيني سيمحو الشر والعنصرية، من سيجرؤ على رفض ذلك؟ يجزم كازنسكي بأن التلاعب الجيني سيُستخدم بلا هوادة والهدف الأساسي منه حتماً سيكون إرضاء حاجات الصناعة والتكنولوجيا لا الإنسان. كل ما ذكرته بخصوص التعديل الجيني يمكن تكراره تحت بند التعديل الآلي للجسد، ما يُبشر به إلون مَسك من دمج الإنسان مع الآلة يخضع للمخاطر السابقة إضافة إلى مخاطر تتميز بها مثل تكاثر الآلات المكررة لذاتها أو وصول الآلات بوعيها الصناعي لما يكفي من استقلال عن البشرية لنفقد السيطرة عليها وربما لنخضع لها، مخاطر الذكاء الاصطناعي المستقل يحذر منه مَسك بنفسه، لكنه لسبب ما يفقد فطنته هذه عندما يكد في عمله على دمجنا مع الآلات. سلسلة ألعاب "ديوس إكس" تتطرح بعض إشكالات التعديل الجسدي الآلي، كما تدور حول نظريات المؤامرة عن جماعات سرية تتنافس في تسيير العالم، ولا أدري ما إن كان مضحكاً أم مخيفاً أن إلون مَسك أشاد بها كأحد الألعاب المفضلة لديه، على الأقل من ناحية السردية...

يُمكن الرد بأن هذه سُنّة الطبيعة، الإنسان في حالة تطورٍ دائم، وما ساعده للنجاة والهيمنة هو القدرة الجبارة على التأقلم مع ظروفه، إلول لا ينفي تلك القدرة لكنه يقول بأن الناتج من التأقلم قد لا يكون بالضرورة ناتجاً نصبو إليه.

تأقلم المريض مع مرضه لا يساوي شفاءه.

ذكرنا نظرتهم للتكنولوجيا والتقنيات كمكونات من كيانٍ يمسخ حياة الإنسان بكل تفاصيلها ويجرده من بشريته بخطوات متسارعة. كيف وصلنا لهذه المرحلة ولماذا لا يجوز تشبيه تقنيات يومنا بتقنياتٍ سابقة واعتبار ما يحصل تطور طبيعي للتقنيات كما كان الحال دوماً؟ لنرى ماذا يقول إلول عن تاريخ التقنيات نفياً لفكرة سير التاريخ على نسقٍ واحد (إن لم يكن ذاك واضحٌ من التضخم التكنولوجي الطردي غير المسبوق) ويفند فكرة وجودنا في مرحلة متطورة زمنياً فقط، مؤكداً أن التغيّر نوعي وقِيَمي، يمكن أن نقول أن مسخاً للقيم فتح المجال لتوالى التحولات المذكورة.

التكنولوجيا كقيمة: أنا ربتكم العليا

لا يدّعي الكاتبان أن الإنسان سقط من جنة بسبب الثورة الصناعية، لم تتغير النفوس فجأة مما دفع عجلة التقدم للتسارع الذي نشهده الآن. تيد كازِنسكي خصص مقالةً لتفنيد آراء الأناركيين البدائيين الطوبائية في وصف الإنسان البدائي وتلكم القبائل. بالنسبة لجاك إلول فإن نظرة الإنسان للتقنيات وتطبيقاتها وقيمه العليا هي ما اختلفت، عند الإغريق لم تتزاوج التطبيقات مع العلوم كما الحال في عصرنا، الأولوية كانت للتفكر المجرد والتركيز على الفضائل مما قلل من قيمة التطبيق العملي للعلوم في نظرهم، وعند حاجتهم للتطبيقات استعانوا بالشرق وكذلك فعلت روما لاحقاً. الرومان آثروا التركيز على التقنيات الاجتماعية والقانونية لا التطبيقية، التناغم المجتمعي كان العنصر الأهم في تطويرهم لهذه التقنيات ولم يكن اهتمامهم بالتقنية من أجل التقنية ذاتها. العصور الوسطى في أوروبا بروحها المسيحية تخلصت من التقنيات الرومانية، وبالنظر إلى زوال الدنيا ومع انتظار الآخرة لم يتجه الفكر نحو استغلال الموارد الطبيعية بالشره المعاصر. لكن إلول لا يغفل أثر المسيحية في إزالة القدسية عن الطبيعة باعتبارها مخلوقاً لا مهجعاً للآلهة والأرواح، قدسية نراها في معظم الديانات الوثنية[3] . التقنيات سابقاً خضعت للتساؤل الديني، التقدم العلمي و در المال لم يكونا سببين كافيين لاعتناق أي تقنية أو اختراع، السؤال الأهم عقائدياً عندهم هو عرضها على فهمهم للدين (يمكن الإشارة إلى مثال فات إلول بأن أدوات التعذيب الجسدي وتقنيات الاستجواب كانت مقبولة كإجابة كنسية لذلك السؤال).

في هذا السياق يمكن التنويه لضرورة دراسة التطور التقني والتكنولوجي في التاريخ الإسلامي والعلاقة بينه وبين أحوال الخلافة والطوائف والفقه المعاصر للتطورات تلك. الكثيرون يشيرون إلى تأخر انتشار الكتب المطبوعة لدى المسلمين في الخلافة العثمانية كأحد أسباب تخلفهم في سباق التكنولوجيا والتقنيات لاحقاً. ولو كان الطرح في سياقٍ آخر لَلُمتُهم على عدم مجاراة أقرانهم تقنياً وتكنولوجياً مما أورثنا العار والاستعمار لا السؤدد أو الندية على الأقل. أنا أدرك تماماً أنهم لم يوقفوا الاختراعات لاعتبارات بيئية أو حتى أخلاقية، لكن في سياق المقالة هذه أتساءل ما إن كان سباق الأمم المتقدمة المعتمد على اغتصاب الموارد البيئية والبشرية سباقٌ من الأخلاقي دخوله؟ وإن لم يكن فهل هناك طريقة لقلب الموازين كي لا يخسر من يحافظ على البيئة وما هي؟

وفقاً لإلول فإن الوتيرة المتروية للتطورات التكنولوجية سابقاً لها أسبابٌ عامة أيضاً، كانت التكنولوجيا تابعة للثقافة وجزء من نسيج العناصر المُشكل للحضارات. كان التطور التكنولوجي خاضعاً للإنسان لا العكس، فهو ينتشر عندما يتأقلم المجتمع معه ويسير بانتظار عوامل أخرى، أما الآن أصبح التقدم غايةً لا وسيلة، التكنولوجيا تتطور من أجل التكنولوجيا دون أي قيمٍ اجتماعية أو أخلاقية أو دينية تدوس فراملها. كما أن التصاميم للتقنيات المختلفة كانت لها اعتبارات نستهجنها اليوم فهي لا تبتغي الكفاءة فقط وتُخضع كل الاعتبارات الأخرى لذلك، المثال الذي يضربه إلول على ذلك تنوّع تصاميم نفس الأداة، السيف السويسري في القرن السادس عشر، التصاميم اختلفت لأسباب صناعية لكنها أيضاً تبعت توجهات أستطيقية. أما الجمال في يومنا هو الكفاءة، لا داعي لاعتبارات جمالية على أية حال فالتقنيات النفسية تُقنع الناس بما هو جميل وفق ما تهوى الجهات المختصة والحاجات الصناعية، وإن لم تقنعها فهي تجبرنا بتحديد ما هو متاح في السوق. أي إضافة تُقلل من كفاءة المنتج لن تصل مخطط التصميم الأخير ولن تمر بوفرة فوق خطوط الإنتاج في المصانع، قباحة المركبة التي أعلن عنها مَسك خير مثالٍ على وضع الكفاءة فوق كل حساب، أو على الأقل هي دليل على قباحة الأستطيقية التكنولوجية.

بما أن التقنيات كانت تقودها الثقافة لا العكس يتوصل إلول إلى أسبابٍ أخرى لبطء انتشار التقنيات عند السلف، المنتجات التكنولوجية لم تكن قطعاً منعزلة عن محيطها المجتمعي لذلك لا يمكن حملها ونسخها في الثقافات المختلفة بسهولة. حتى لو انتقلت فيزيائياً بسرعة، المطبعة الأولى في الخلافة العثمانية وصلت بعد سبعين عاماً تقريباً بعد عمل مطبعة غوتنبرغ، لكنها استخدمت بدرجة أولى من اليهود والمسيحيين، أما العثمانيون فهم لأسباب عدة لم يهتموا بهذا التطبيق وبنشره كما نهتم اليوم بتداول أي تكنولوجيا تصلنا. البعض يعيد السبب لأُثرها الاقتصادي على العاملين بمجال نسخ الكتب حينذاك، بما أن المجتمع لم يكن صناعياً يولّي التقدم على قطع الأرزاق فلم يُعمل بها. سببٌ آخر يُذكَر هو رفض رجال الدين لهذا الاختراع، مما يؤكد نظرة إلول أن التقدم التقني لم يكن كما هو اليوم، القيم اختلفت، الاختلاف بيننا وبين من سبقنا لا يعود لقصور عقلي عندهم كما أقنع المستعمر نفسه وهو يجبر الجميع على "التحضّر" أو كما نقنع أنفسنا اليوم لتبجيلنا للتكنولوجيا.

صورة أخرى لخضوع التقنية لثقافة المجتمع لا العكس هو أن سقوط حضارة عنى سابقاً اندثار تقنياتها معها (ما زلنا نحاول فهم كيف تم بناء الأهرامات في زمن تليد) أما في القرن الماضي نستطيع تتبع استعارة التطبيقات من الأعداء المباشرين، الرايخ الثالث تعلّم أهمية البروباغندا من خسارة الحرب العالمية الأولى، الولايات المتحدة جلبت العلماء النازيين بعد الحرب العالمية الثانية، في الحرب الباردة انتشل الاتحاد السوفيتي عبر الجواسيس أسراراً نووية. هذا "التعاون" التقني لم يكن بتلك الأهمية في الحضارات السابقة بل نجد نوايا محو المهزوم تماماً، مع علومه وتقنياته في بعض الأحيان (العهد القديم يدعو إلى إبادات جماعية كإبادة العمالقة، المغول لوّنوا نهر دجلة بحبر الكتب في دار الحكمة) وحتى مع انعدام تلك النية لا تكترث الثقافة بنقل منتوج الثقافات الثانية كما تهتم به القوى العظمى الآن.

ماذا عن هذه القوى العظمى أو ما تبقى منها؟ هل هي من حركت التقنيات من أجل مصالحها، أم أن التقنيات توّجه هذه القوى لتصبح قوة تقنية واحدة؟ وهل من الممكن تسمية الدول المدنية المعاصرة المختلفة حضارات مختلفة على أية حال أم أنها أقاليم من حضارة واحدة، حضارة صناعية تفرش الكوكب بأكمله؟

الهوامش

[1] https://www.businessinsider.com/elon-musk-says-were-all-cyborgs-2016-6

[2] https://www.thenational.ae/uae/the-word-on-the-street-same-same-but-different-1.512101

[3] من الناحية الإسلامية من الواضح تاريخياً أن البيئة لم تتعرض للظلم التكنولوجي الاستهلاكي المعاصر، ويمكن دمج فكرة استخلاف آدم وضرورة العدل للوصول إلى فقه إسلامي للاعتناء بالبيئة. ديفيد سكربينا يشير إلى انتقادات للتكنولوجيا بأبسط صورها في القصص الطاوية. إلول أيضاً يشير إلى رفض الفراعنة لاستخدام العجلة لأسباب دينية. الكثير من هذه الخيارات سنتعجب منها في عالمٍ يدين بالديانة التكنولوجية.

الثورة كاستحالة تقنية

في الجزء السابق أشرت إلى أفكار المفكرين، ثيودور كازنسكي وجاك إلول، عن مسخ التكنولوجيا لطبائعنا على أكثر من صعيد. في الجزء الأول ذكرت تعديها على حرياتنا وإغوائنا بإيجابيات مؤقتة قبل إيقاعها لنا في فخ الاعتماد الكامل عليها. في هذا الجزء سأتحدث عن المسخ على مستوى عالمي وما يعنيه من تمكين جماعات ونخب من إلغاء حريات الملايين وربما البلايين من الأفراد. والخطورة المقترنة بالتطور التكنولوجي المتمثلة بإغلاق النافذة الثورية للأبد.

عولمة تكنولوجية: حضارة كوكبية واحدة

يستشهد كازنسكي بما يتوفر لديه من مصادر في السجن، أحدها الموسوعة البريطانية (بريتانيكا)، ويقتبس منها التالي للإشارة إلى درجة اشتباك الدول اقتصادياً وتأثر التغيرات الخارجية فيها "الدولة التي تشترك بدرجة عالية في التجارة العالمية قد سلّمت رهائنَ للحظ، إذ يعتمد جزء من صناعاتها على أسواق التصدير للحصول على الدخل والوظائف، أي انقطاع في الأسواق الخارجية (ناتج عن كساد، أو فرض التعرفة في الدول الأخرى، أو عدة من التغيرات المحتملة كوقوع الحرب) سيترك أثراً حاداً جاداً، أثرٌ خارج سيطرة الحكومة المحلية فهي لن تتمكن من التدخل لتبديل الأحوال. وكذلك قد يعتمد جزء آخر من الصناعة المحلية على مجرى واردات كالمواد الخام والنفط والطاقة. أي انقطاع في هذه الواردات سيشكل عواقب جسيمة. التهديد المبهم الضمني في هذه الاحتمالات في العادة يُنتج تطلعاً للاكتفاء الذاتي، وحياة تخلو من الاعتماد على مخاطر العالم الخارجي ..... هناك اتفاق عام بأن الدول الحديثة، مهما كانت غنية ومتعددة الموارد، هي دول غير قادرة على الاكتفاء الذاتي"

أول ما يتبادر إلى الذهن هو صفقة الغاز مع الكيان الصهيوني والتي سترهن ما سبق بالإضافة إلى الأمن القومي عند كيانٍ معروف بخيانة العهود وعداوته لشعوب بلاد الشام. هذا التشابك الاقتصادي لا يمكن الوصول إليه دون الطبيعة التقنية لعالمنا، والتفسير الاقتصادي (والذي سأتطرق إليه بعد قليل) لا يكفي في نظر إلول، ففي العالم -حين كتب كتاب المجتمع التقني- قُطبان تقنيان، ما بينهما دولٌ تسعى للتخلص من الاستعمار المباشر لكنها تضطر للخضوع إلى أحد الأقطاب تقنياً، ولن تمانع هذه الأقطاب من التَفضُّل على هذه الدول "المستقلة" بالدعم. لا يختلف الوضع كثيراً في يومنا من الناحية التحليلية، ما اختلف فقط هو الأقطاب التقنية، ظهور الصين كندٍ للغرب ونزاعاتهم على "بناء" أفريقيا. توفير الكيان الصهيوني خدمات للعديد من الحكومات في الأمن السيبراني، تعني هذه الكلمة التجسس على المواطنين.

التحولات التقنية لا تتمم مكارم الأخلاق، هي لا تصب القيم القديمة في أوعية متطورة بل تحطم كل ما سبقها من قيم ومعتقدات ثقافية. الأمثلة التي يضربها إلول هو تلاشي تقديس الإمبراطور الياباني بعد علمنة الحلفاء لليابان بعد خسارتها وضربها بالقنابل النووية، أو الضغوط التي تتعرض لها البوذية في التبت والصين بفعل الحكومة الشيوعية. إلول لا يدّعي أن الحضارة التقنية ستجعل العالم ملحداً، لكن الأديان أو ما تبقى منها ستُمسخ لتصبح ديانات تخدم التطور التكنولوجي والتقني. يمكننا أن نرى صدى ذلك بما يتعلق بالإسلام، الحرب العالمية الأولى وما تلاها بقليل شهد سقوط الخلافة العثمانية، تدهور الإسلام كقيمة عليا لم يتوقف عند ذاك الحد، التقنية الاقتصادية المتمثلة بالبنوك الدولية والقروض الربوية في تضارب مؤلم مع تعاليم الإسلام. لكنها أحد أذرع الحضارة التقنية العالمية التي لوت ذراع المسلمين، وكما ذكرنا لم يتخلَّ المسلمون عن الدين كله لكنهم في طور تحويل دينهم إلى دينٍ علماني يدفع أبناؤه الفوائد المتراكمة وهم صاغرون ويعملون بنفس التقنيات الاقتصادية فيما بينهم بتسميتها بغير مسمياتها (المرابحة).

يمكن أيضاً أن أشير إلى ظاهرة أسميتها "الجهاد الإمبريالي"، الكثيرون يرون في دحر المجاهدين للاتحاد السوفيتي من أفغانستان نصراً للإسلام، وهو ربما كذلك ولكن لو قرأته باستخدام المعايير الدنيوية تجده نصراً مؤزراً لا بالملائكة بل بالأسلحة والتدريبات (التقنيات) الإمبريالية (الأمريكية والبريطانية) ولغايات مشتركة قصيرة المدى (إضعاف الاتحاد السوفيتي لا إعلاء كلمة الله). المجاهدون حرروا أفغانستان بالتعاون مع قوة عظمى ضد أخرى لتحتلها الأولى بعد حين، وتستمر الحرب حتى صارت أطول حربٍ في تاريخ أمريكا والعداد لم يتوقف بعد.

كازنسكي يضرب مثلاً بين تماس التكنولوجيا مع قبائل اليور يورونت الأسترالية التي عاشت -بالعرف التقني- في العصر الحجري. في بداية القرن الماضي دخل عليها اختراع متقدم تكنولوجياً ألا وهو الفأس الفولاذي، إذ تم استبداله بالفأس الحجري بنيّة صادقة في دفعهم إلى "التحضر". لكن الفأس الحجري في ثقافة بدائية كهذه حمل معاني اجتماعية لا عملية فقط، لم ينظروا إليه كما ننظر إلى الأدوات التي تُصنّع بالجملة ولا نرى فيها أكثر من تصميم تقني وسبيل لغاية عملية. الفأس الحجري ارتبط بميتافيزيقيا القبيلة، عليه تقوم العلاقات

الاجتماعية بين أفراد العائلة وللحصول عليه نشأت خطوط تجارة محددة واستدعت من الرجل مهارات معينة، وما قد نجده عجيباً بفكرنا التقني هو أن الفأس الحجري لم يمتلك تلك القيمة العملية الكبيرة عندهم فهو يدوم لفترة أطول من الحجارة التي صُنع منها بقليل فقط. النتيجة من التبادل التقني البسيط في نظرنا كانت -بالإضافة إلى عوامل اختلاط أخرى- كارثية، العلاقة القائمة على تفوق الرجل في العائلة لحمله الفأس تقلصت لأن أبناءه وزوجته أصبح بإمكانهم الحصول على الفؤوس من الرجل الأبيض. لم يعد هناك حاجة لخطوط التجارة إذ توفّرت هذه الأداة الحديثة. لم تعد علاقة الرجل بالفأس علاقة اعتماد على النفس إذ كان هو صانعه، بل أصبح خاضعاً للرجل الأبيض، هو وجميع أفراد القبيلة. دخول الفأس الفولاذي لم يكن ماسِخاً فقط بسبب نوعه بل بسبب الكم الذي توافر فيه فجأة. تتابعت الآثار الميتافيزيقية بعد ذلك، الأساطير في القبيلة قالت بثبات العالم الطبيعي كما خُلِق وربطت كل ما فيه بالطوطمات، الفأس الفولاذي لم يكن موجوداً سابقاً ولم يكن هناك تأويل ديني لوجوده. قِس على ذلك الدخول المفاجئ لأي أداة أو تقنية إلى ثقافة لم تبتدعها. وهذا بدرجات متباينة ما يحصل وبتسارع في العالم كلّه.

على الإنترنت نلاحظ الانعدام الحَرفي -افتراضياً- للحدود الجغرافية فيه، الثقافات تختلط بمباشرة يستحيل أن نجد لها مثيلاً تاريخي، هذا الاختلاط له تبعات لم ندركها ومن الصعب التنبؤ بها حالياً. وعلينا ألا نقع في فخ حالمٍ بالحلول السلمية في مناظرات بدلاً من حروب، لسنا في فضاءٍ طبيعي وإنما في عالمٍ تملكه شركات ومزودو خدمات الإنترنت وما نراه قد يتم التلاعب فيه كما أثبتت فضيحة كامبريدج أناليتكا، أو كما انكشف مؤخراً من اختراق إسرائيلي لصفحات يمينية غربية لتحرض على المسلمين. تبعات هذا الاختراق ستتفاوت بين الثقافات المختلفة، لكن من المنطقي توقع ذوبان الثقافات في الدول العربية بسرعة أكبر من الثقافات المختلفة بسبب اختفاء الحاجز اللغوي أيضاً لا الجغرافي فحسب، بالإضافة إلى الضيعان شبه الكامل في الهوية عند الشعوب التي تسمي نفسها بالشعوب العربية.

إلول دون أن يشهد صعود الإنترنت وانتشاره كالهواء أشار إلى إمكانية استخدام التقنيات النفسية للوصول إلى "كفاءة نفسية". مَسحُ كل الفوارق بين البشر، لا لدواعٍ إنسانية، بل لأن كلَّ ما هو خارج عن الضرورة التقنية من خصائص وعادات لا محل له في عالمنا. عندما تنجح التقنيات النفسية بالتعاون مع تلك المادية في مسح هذه الفروق وتوحيد البشرية لنصبح وفق وصفه "طوبة من التضامن اللاعقلاني".

إلول أيضاً لم يشهد موجات النزوح، الموضوع شائك[1] وبحذرٍ سأشير إلى جانبٍ مظلمٍ من "تقبّل" الآخر بالصورة التي تدعو إليها الكثير من القنوات الغربية وحكوماتها ويصفق لها الإعلام العربي. الكثير منا في بلاد الشام يحلم باختفاء حدود سايكس بيكو، لكن عندما ظهرت هذه الفرصة على أيدي داعش رفضناها. في عالم مثالي لا معنى للحدود، لكننا هنا في العالم الواقعي. قِس على مثال داعش مثالاً أكثر وحشية وأقل احتراماً للثقافات المحلية، ليس من الصعب بهذا القياس رؤية محو الفروق الرائع نظرياً يُنفّذ بطريقة شنيعة تحولنا جميعاً إلى قطيعٍ على مستوى الكوكب، يقودنا نظامٌ تقنياته عمياء اقتصاده مُجحِف. نعم حضارة كوكبية موحدة لا فرق فيها بين عربي وأعجمي، لكن بأي ثَمن؟

الاقتصاد والتكنولوجيا

جاك إلول خصص في كتابه فصلاً كاملاً عن التقنيات الاقتصادية وإحدى النتائج التي توصل لها حاجة هذه التقنيات لتسطيح الإنسان لبُعده الاقتصادي فقط كي يماثل النظريات الاقتصادية والإحصائية، الوضع المادي هو الهمّ الوحيد والبُعد الأول والأخير، أما سائر الأبعاد كالثقافة والفنون والروحانية والأخلاق مجرد نكت. نقد إلول لتمجيد البعد المالي ليس نقداً موجهاً للرأسمالية فقط، فهو يشير إلى أن اختزالَ الأفراد إلى بعد مالي اختزالٌ يتفق عليه البرجوازيون والشيوعيون. مبعث الغُربة التي تشعر بها البروليتاريا ليس خضوعها اقتصادياً للبرجوازية فحسب، بل يضاف إليه تحوّل الفرد في وظيفته في النظام الصناعي إلى شبه آلة، ويتأسف إلول لأن هذه الغربة بدلاً من أن تُشعل الروح الثورية لتتساءل عن ضرورة رفعة الاقتصاد في حسابات الفرد توجهت لمقارعة البرجوازية في السعي وراء جني الأموال. هذا التوجه دفعهم لاستخدام أداة الاتحادات العمالية لتقوم بدورها باستنزاف الإرادة الثورية في التركيز على إعطاء العمال المزيد من المال والظروف المريحة في الوظيفة.

تتوجه أصابع الاتهام عند وقوع الدواهي البيئية إلى الشركات وأصحاب رؤوس المال والرأسمالية ككل. لا ضير في ذلك لو اكتملت قائمة الشركاء بالجريمة. تتفق النظريات الاقتصادية على ضرورة استغلال التكنولوجيا، ويتفق الكاتبان على هذه النقطة لكنهما لا يفعلان ذلك للوقوف على مسافة واحدة من الاتجاهين والظهور بمظهر الحكيم المحايد، النقطة الأساسية من طرح المفكريَن هو مركزية خطر التقنية والتكنولوجيا وأن اللوم بالدرجة الأولى يجب أن يتوجه إلى هذه المركزية لا إلى الاقتصاد، وأن الاقتصاد يحاول استغلال التكنولوجيا بطرق مختلفة.

كازنسكي يدعي أن النظام التكنولوجي الصناعي لا يخدم حاجات الإنسان، ما يقوم به هذا النظام هو العكس تماماً، قولبة سلوكيات الإنسان كي تخدم المتطلبات الصناعية، اللوم ليس على أيدولوجيا سياسية أو اجتماعية، ولا على الرأسمالية أو الاشتراكية، اللوم على النظام

التكنولوجي. لا ينفي كازنسكي تلبية هذا النظام لبعض حاجات الإنسان لكنه يرى أنها تلبية مقرونة بتلبية حاجات التكنولوجيا، مثلاً قد يشعر العامل بالاكتئاب، الحل لذلك هو حل في حدود إعادته إلى العمل، فلو اكتأب عدد كبير من العمال والموظفين لأقفرت المصانع والشركات. إلول يستشهد بنتيجة روبنستاين بأن نقد الشيوعية للتقنيات المستخدمة في الرأسمالية ينطلق من كبح الرأسمالية لتلك التقنيات إن لم تولّد هذه التقنيات أي مربح، هذا النقد يعني في المقابل أن الشيوعية ستطلق العنان للتقنيات وتسمح لها بالتطور بوتيرة أسرع من تلك التي تسمح لها الرأسمالية. ثم يذكر تحليل ثورستين فيلبين القائل بوجود صراع بين العمل الرأسمالي والتطور التكنولوجي، فالتطور التكنولوجي في الرأسمالية يتوجه للربح لا لذاته، ولو تسارعت وتيرة تطور الآلات قد تمنع السرعةُ الرأسمالي من الربح في الوقت بين استخدام الآلة وما تلاها من آلة ذو كفاءة أعلى وسعرٍ أغلى.

الشيوعية في نظر إلول في صف التكنولوجيا، في بدايات التطور الصناعي المتسارع شعر العامل بثقل الآلة وحتى منتصف القرن التاسع عشر كانت متطلبات العمال قمع الآلة، يمكن ذكر حركة ال"لَدايتس" في أوائل ذاك القرن، حركة عمالية أزاحتها الآلات وأرباب الأعمال وانتقمت بتحطيم الآلات التي استبدلتهم. لم تكن ردة فعلهم هذه إثر كرههم للتكنولوجيا لذاتها وإنما لقطعها لأرزاقهم. العمال في ذلك القرن وفقاً لإلول ذاقوا مرارة التكنولوجيا دون الحصول على نتائجها المُسكِرة بعد، في القرن التاسع عشر غيّر كارل ماركس نظرة العامل للآلات التي زاحمته، المشكلة كما قدمها للعمال ليست بالآلة وإنما بأرباب العمل.

العلاقة بين التكنولوجيا والاقتصاد إذاً كالتالي: الشيوعية تضع -نظرياً- وضع العامل الاقتصادي فوق أي اعتبار، الرأسمالية تضع -نظرياً- الربح فوق أي اعتبار. حيازة وسائل الإنتاج هدف البروليتاريا، التنافس الحر بين الشركات سنّة الرأسمالية. الشيوعية والاشتراكية تحتاجان لدرجة عالية من المركزية ونظام حكم متطور قادر على استيعاب حاجات المجتمع ككل، التقنيات التي ستتطور هي تقنيات البيروقراطية والشمولية. الاستهلاكية في تنافس شركاتي تعني إنتاجاً زائداً عن الحاجة، وللوصول لتلك الدرجة من الإنتاج لا بد من تطور تكنولوجي تفوق سرعته سرعة أي عدد من العمال البشريين وحتى المستهلكين لتلك المنتجات، مما يطوّر تقنيات الصناعة والاستخراج. وليس غريباً التعمق في تقنيات التلاعب في آراء الحشود في ظل النظامين الاقتصاديين، الشيوعي لشموليته ولإجبار العامل على العمل للوصول إلى جنة الاقتصاد ما بعد الندرة، الرأسمالي لطمعه ولخلقه سوقاً للمنتجات التي قد لا يريدها الفرد -نوعاً أو كمّاً- لو لم تُقصف جبهة وعيه بالدعاية والإيحاءات الشرائية. وأخيراً، الأنظمة الاقتصادية المعاصرة تشترك مع النظام التكنولوجي بنقطة جوهرية، النظر إلى العالم بعدسة المادية. بالنسبة لتيد كازنسكي وجاك إلول الهدف من النقد هو التكنولوجيا، مركزية خطورة التكنولوجيا لا ترتبط بالاقتصاد فهما يقرّان بأن التكنولوجيا قد تقدم الكثير من المنتجات (على حساب البيئة) ولكن علينا استيعاب أثرها على حرية الفرد وطبيعة الإنسان، وعواقبها البيئية وعلى الحياة على الكرة الأرضية برمتها. الأنظمة الاقتصادية المتاحة كلها تقول للتكنولوجيا "هل من مزيد". النظرة الضدية للتقنية عليها أن تتذكر هذا الفيصل كي تترفع عن الجدالات الاقتصادية العقيمة في العالم الرأسمالي.

"رب ضارة نافعة" يقول كازنسكي -بتصرّف- بما يخص توحد الحضارة التقنية وتعقيدها، الترابط الاقتصادي سيضر البيئة على المدى القصير لكن ربما سيسهّل مهمة الثورة ضد التكنولوجيا لأن سقوط اقتصاد إحدى الدول الصناعية الكبرى قد يجر معه دمار الاقتصاد في كل الدول الصناعية. كما أنه يعتقد أن توجيه ضربة مدروسة لنظام معقد أسهل من تدمير بدائي قادر على ترميم نفسه بسرعة، جسد الإنسان مثلاً آية في التعقيد لكنه يتوقف عن العمل لو فشلت أعضاء مركزية فلا داعي لتوجيه ضربات لكامل الجسد كي تقتله.

في كتابه الثاني يستشهد كازنسكي بعدة أمثلة تاريخية كي يضع نظرياً من وراء القضبان بعض الأسس لثورة مضادة للتكنولوجيا (هدفه عندما صنع وأرسل المتفجرات). ولا يتحرج من الاعتبار من البلشفية لنجاحها في قلب النظام مُذكراً في نهاية الكتاب أن الشيوعيين ك"محبي التكنولوجيا" خصومٌ له ولكل من يؤمن بأن التكنولوجيا المعاصرة تدفع العالم إلى الهاوية.

ثورة ضد التكنولوجيا، وضد أي شيء

التكنولوجيا غيّرت وجه العلاقات بين الأفراد وبين الطبقات وبين الفرد والدولة وبين الإنسان والطبيعة، ذكرنا القليل عن تغيرها لطبيعة الحروب لذا من المنطقي توقع تغيّر طبيعة الثورات أيضاً. تغيّرٌ يحتم -بنظري- على الثائر والمحارب من أجل أي قضية التمحيص أكثر بقيمة المعلومات المستقاة من ثورات وحروب عالم ما قبل الثورة الصناعية. علي أن أذكر هذا المأخذ على كتاب السيد ثيودور الثاني، مع التطور المتسارع للتكنولوجيا ستفقد الدروس التاريخية قيمها بذات التسارع وتباعاً يُفضل لسلامة المنطق النظر إلى أحداث مشابهة أقرب زمنياً، لكنه أخذ من الثورات البلشفية "أكثر من اللازم". لا أنكر طبعاً وجود تشابهات بين أي حدث يندرج تحت ذات التصنيف، الثورات ما زالت في تعريفها الأساسي مرتبطة بمحاولة تغيير النظام السياسي القائم، لكن التقنيات والأدوات لهذا التغيير هي ما ستتغير مع الزمن وسيقابلها بالتأكيد تطور قدرات النظام القائم على تثبيت نفسه ضد هذه المحاولة. ذكرنا الطبقية الجينية أو الآلية في الجزء الثاني من المقالة، هنا يمكننا الإشارة إلى الطبقية التقنية المرتبطة بالطبقية الاقتصادية كما هي الآن لا في مستقبلٍ محتمل.

النتيجة الأخطر التي قد نصل إليها لو صحّت نظرة المفكريَن لقدرات التقنيات والتكنولوجيا على التضخم وتشويه كل شيء هي أن الثورة بحد ذاتها قد تصبح *استحالة تقنية*، قد تصدق نية الحشود في الثورة لكنها ستبقى عارية ببشريتها أمام أسلحة الجيوش النظامية، كما أن تقنيات وتكنولوجيا تفريق الحشود تتطور لتصبح أقل عنفاً مما يُسهّل أخلاقياً ضغط الزناد. الشرطي **قد** يتردد في إطلاق النار على أبناء شعبه لكن مسدس صوتٍ أو قنبلة دخان أو ضخ مياه مُركز ليس فتّاكاً ولن يؤرق الشرطي المُتعذر عن إطلاق النار. وإن لم يتعذر عن فعل ذلك فهو دوماً قادرٌ على استخدام هذه الأسلحة بطريقة فتاكة مثل استهداف الرؤوس مباشرة بقنابل الدخان بدلاً من استخدامها كأداة لتفريق الحشود وكبحها.

قد تختفي حاجة أي حكومة لتحريك جيشها فهي لتفادي ذلك اخترقت خصوصيات المواطنين، نسهّل ذلك بالطفو على سطح مواقع التواصل الاجتماعي بمعلوماتنا الشخصية. الحكومات الآن لديها الإمكانية التقنية للمراقبة بدقة خوارزمية أي بذرة لثورة أو حراك وقد تتمكن من تفتيتها قبل أن تنمو. هذه القدرة لم تتوفر لأي حكومة في معظم التاريخ البشري. التقنيات النفسية والسياسية وصلت إلى مرحلة كافية من التعقيد لتكسير مجاديف الفكر الثوري عند الشعوب، سهولة اختراق صفحات ومجموعات مراسلة على الإنترنت تفوق سهولة اختراق الجماعات التي تتقابل على أرض الواقع. كما أن الثقافة الصناعية بأوزارها الوظيفية تجعل الفرد خاملاً في أي مجال لا يفيد العالم الصناعي. الخليط من الخمول السياسي الذي تفرزه الطبيعة الصناعية مع التقنيات النفسية والسياسية وصل إلى مرحلة من الترابط والتعقيد الكافي ليمتص الرغبة الثورية كلياً. مع فيضان وسائط الترفيه والأدوية المناسبة لتخدير أي تصرفٍ لا يناسب النظام التكنولوجي لن يفكر الفرد بأن يثور فكل ما يريده موجود، سوى الحرية طبعاً.

الأسوأ من ذلك هو تحوّل الميول الثورية والاحتجاجية إلى أداة في يد النظام نفسه، السياسي في نظري والتقني في نظر كازنسكي. فهو يطلق على هذا الاحتمال "خدعة النظام الأدهى" ويلخصها كالتالي: النظام التكنولوجي يحتاج لإجراء تغيرات اجتماعية جذرية لمجاراة التقدم التكنولوجي، في الوقت ذاته تدفع الظروف التقنية الأفراد للشعور بالإحباط مما يدفعهم للثورة، يستغل النظام الدوافع الثورية كي يطبّق التغيرات التي تناسب التقدم التكنولوجي ضد العادات المجتمعية التي لا تناسبه، بذلك يجد الثوريون فسحة لإطلاق ثوريتهم لكنها فسحة لا تعادي النظام بل تفيده. الحنق من هذه التغيرات الاجتماعية لا تلوم النظام التقني وإنما تصب غضبها على المتطرفين المترأسين لهذه التغيرات.

في مواضع أخرى يذكر أمثلة على ذلك، ينتقد المحافظون التغيرات الاجتماعية التي تحطم التقاليد وفي الوقت ذاته يشجعون التقدم التكنولوجي، دون أن يلاحظوا أن التقدم التكنولوجي يتطلب تحطيم كل الأواصر الاجتماعية لأنه يتطلب أفراداً معزولين يتم نقلهم وفق المتطلبات الصناعية وتشغيلهم لتحقيق الكفاءة التكنولوجية بغض النظر عن حالاتهم الاجتماعية. لاحظ أن الواسطة أصبحت خطيئة في ظل النظام التقني، نرى في مساعدة الأقارب رجعية لا عقلانية، القيمة العليا في وقتنا هي الكفاءة التقنية أما العلاقات البشرية فهي عقبات في طريق تقدم الآلة والإنتاجية المسعورة التي على كل المجتمعات مواكبتها.

ما يقوله عن معارضة اليسار في الغرب ليس أفضل حالاً إذ خصص جزءًا لا يستهان به من المانيفستو في نقد اليساريين المعاصرين. يجد مِن اليساريين من يحاول التخلص من قيوده النفسية (الشعور بكره الذات والذنب والقصور) بالثورة لكنهم لا يجرؤون على مساءلة قيم المجتمع الأساسية، ما يفعله اليساري هو أخذ تلك القيم واتهام المجتمع بأنه لا يطبقها بما فيه الكفاية. قيم كالمساواة بين الجنسين، بين الأعراق، مساعدة الفقير، حرية التعبير وغيرها كلها قيم متأصلة في المجتمع الغربي لمدة طويلة، الإعلام والتعليم يعززان تلك القيم، اليساري لا يتحداها بل يتهم المجتمع بالتقصير في تطبيقها. ملاحظات كازنسكي مرسومة من اليسار في الدول الغربية، هناك الكثير مما يتطلب القول عن اليسار واليمين في الدول العربية لكن ذلك موضعه في مقالات مستقلة.

الثورة كاستحالة تقنية قد تحصل لترابط العالم، أي محاولة ثورية لا تنعزل بالحدود الدولية وستتحول لحربٍ بطريقة أو بأخرى. إشعال شرارة الثورة الأولى العفوية قد لا يكون استحالة تقنية لكن ديمومتها في ظلال التكنولوجيا والحضارة التقنية الواحدة يصل بحتمية إلى حرب إقليمية أو عالمية. الثورة الإسبانية تميّزت بتدفق آلاف المقاتلين من دول أخرى وتدخّل حكومات لدعم طرفي الصراع. خاصية ما كانت لتحدث بهذه الصورة لولا ارتباط العالم الصناعي.

لم يعد للثائر رفاهية انعزال نظامه بما يكفي كي ينفرد بحكومته، ومن المؤسف قراءة التحليلات و التعليقات على ما عُرف بالربيع العربي متناسية تماماً هذا التحوّل في العالم والمبالغة في عزلٍ لأحوال الدول عن الطبيعة المتشابكة والمعقدة للنظام العالمي، أو الدعوة لأن يحل كل شعبٍ مشكلته قبل الاستعداد لمساندة شعوبٍ "شقيقة" كأن المأزق ببساطة حل أسئلة امتحان مختلفة بترتيب عشوائي. ما يؤسف أكثر من طوبائية أنصار الثورات بهذا العزل التحليلي هو الأنانية للوطنيين الذين يعتقدون أن النأي بالنفس والحياد عن الصراعات المجاورة هو خيار متاح في عالمٍ تكنولوجي يخوض حروباً على مستوي كوكبي. أو أن الحكومات العربية الخاضعة تقنياً لحكومات غربية واقتصادياً لبنوك دولية قادرة على أن تعزل ذاتها حتى إن شاءت. أو أن الانعزال الحدودي سيمنع تدفق المهاجرين الذين تتطلبهم الصناعات للتنقل كما تتنقل المواد الخامة عبر القارّات. تكنولوجيا الاتصالات المتطورة تسهّل تناقل المعلومات بين الأجهزة الأمنية حول دول العالم مما يعني تسارع في إتقان كل الأجهزة أساليب القمع، الناعمة منها والوحشية.

قد يساعد هذا الارتباط والتشابك على فتح آفاق كانت مغلقة قبل الثورة الصناعية وثورة الإنترنت للثوار والخوارج سياسياً. من الممكن أن نجد مواطنين في بلدان بعيدة يدركون أبعاد قضايانا ويقفون بصفنا (معنوياً). انعدام الأبعاد الجغرافية على الإنترنت يسمح لتقارب فكري وبالتالي أيدولوجي، شباب اليوم منفتحون على معتقدات نمت في تربة ثقافية مختلفة، ولتقارب طبائع البشر ستتقارب بعض الأوجه لهذه المعتقدات أو قد يجمعها بكل بساطة الشعور السائد بالنقمة على هذا النظام العالمي وتجلياته المزعجة في كل أروقة حياة الفرد أينما كان. ربما ستنمو هذه التحالفات بمساعدة التبادل المعلوماتي المباشر والتحليل الأكثر عمقاً للأحداث السياسية بعيداً عن ضوضاء البروباغندا لتُنقل بعدها إلى أرض التطبيق. التقاطعات بين الأفكار المختلفة تعني تواجد أعداء مشتركين لتوجهات مختلفة، ليس هذا حكر على العالم التقني، مثالٌ تاريخي على ذلك تكاتف الشيوعيين (السلطويين) والأناركيين (أعتى أعداء السلطوية) في الثورات. الآن هذا احتمال مفتوح على عقائد لا يحكمها الجوار الجغرافي.

مثال معاصر هو تقاطع منطقي بين الضدية للتقنية (خصوصاً بصورتها البيئية) والجهاد الإسلامي، كل الاحتمالات -المنطقية نظرياً- متواجدة في عالم الإنترنت الافتراضي مباشرة أو عن طريق توفيره لكتابات أولئك المستوعبين لعمق هذه الأفكار. علينا أن نذكر موقع التحالفات في عالم الإنترنت المحكوم من قِبل الشركات والمراقب استخباراتياً، أي ثائر أو صاحب قضية عليه في حاضرنا التقني إتقان تحصين نفسه رقمياً، وقد يتطلب هذا التضحية بما تقدمه مواقع التواصل الاجتماعي من نرجسية وتحقيق اجتماعي للذات. ربما أُغلقت هذه النافذة تماماً، البالغون لم يستوعبوا الخطورة في الوقت المناسب والمراهقون أصغر من إدراك الحاجة للسِتر الإنترنتي.

هناك شعرة يمكن أن نكسبها من مؤخرة الخنزير الإنترنتي، ولوجنا كأفراد العالم الثالث افتراضياً إلى ثقافة العالم الغربي وفلسفته كي نستطيع نقدها وفهمهما من الداخل لا من الخارج فقط، أن نتعلم من أخطائها وتوجهاتها والتحذيرات الراديكالية على أطرافها بدلاً من أن نلهث في تقليدها ونتشرب من خطاباتها الرسمية، سواء تلك الرسمية السلطوية أو الرسمية المعارضة. يمكننا إدراك التقاربات والمخاطر التي تواجه كلتا الثقافتين. للأسف الحاصل على أرض الواقع هو عكس ذلك، المثقفون العرب منشغلون إما بتكرار أدبيات غابرة عن الطغيان أو التغني بالحضارة التقنية الدافعة للبشرية إلى الفناء وبدعوات لتقديم تضحيات مشكوك بجدواها على مذبح الديمقراطية. السقف الفكري لمعظمهم هو تطبيق أنظمة سياسية موجودة بدلاً من تصوّر أنظمة مختلفة.

نعاني أيضاً من انعدام حساسية للأخطار البيئية بناء على براءة ذمتنا. كأن الكوارث البيئية ستحاسب البشرية بعدل. نحن كشخص يجلس في الكرسي الخلفي لمركبة يقودها شخص مهووس بالسرعة نحو موتٍ محتم، بدلاً من الخروج من المركبة أو منع قائد المركبة من الاندفاع نتكتف ونفتخر بأننا لسنا المسبب للحادث.

في الوقت ذاته علينا أن ندرك بعض المخاطر من التضامن الافتراضي ومن هول الأخبار البعيدة جغرافياً. أولاً يجب ألا ننخدع بوقفات من هم بعيدون عنا جغرافياً مع قضايانا على الإنترنت، فكم من السهل على أي شخصٍ أن يكتب كلمات تضامنية وتشجيعية، الكثير من الصفحات العربية مليئة بكلمات التضامن مع الشعب الفلسطيني، ماذا يعني ذلك على أرض الواقع؟ في فترات معينة نرى زخماً وكماً أكبر من التضامن الإنترنتي مع الثوار في سوريا، وقبلهم في ومضات مع الثورات في ليبيا أو مصر، أكرر السؤال، ما فائدة كل هذه المنشورات على أرض الواقع؟ كلام ثائر عاطفي عن تأثره بهذه المنشورات لا وزن له في موازين القوى كما هو واضح في الميادين. العالم الافتراضي قد يعطي الأشخاص نافذة لتفريغ افتراضي للمشاعر، لينخدع القائل والقارئ بطبيعة هذه المنشورات الثورية وعندما يرى الهزائم على أرض الواقع يستغرب، لكن ما الغريب من أن المنشورات التضامنية لا تسمن ولا تثمن؟

في الجانب الآخر، قد ينشغل الشخص بقضايا لا تخصه، تحت شعارات عجيبة عن الإنسانية، السؤال ينقلب عن خفة هذه المشاعر للمتلقي لهذه الأخبار: هل هناك فائدة حقيقية لاكتشاف مواطنٍ في دولة ما جرائم تحصل في دولة بعيدة عنه إن لم يكن قادراً على التأثير بها وهي لا تؤثر به أصلاً؟ أو أن يسمع عن سياسات دولٍ لا تمسه لكنها تمس شخصاً يشبهه نوعاً ما، مما يدفعه للغضب والشعور بأنه تضرر شخصياً، ردة الفعل هي الكتابة بغضبٍ عن تلك الأخبار، وترك رسوبيات لتلك الحالة النفسية المُستفزة في ذهنه. بعدها تستطيع حكومة وجِهاتٌ استخباراتية في لحظة ما استغلالها لدفع هذا الشخص لتقبل سياسات أو الإقدام على جرائم أو الالتحاق بميليشيات ما كان ليتقبلها، يقدم عليها، يلتحق بها لولا اغتصاب عقله بتلك الأخبار الشنيعة.

ابتعدت كثيراً بالآفاق والمخاطر للإنترنت، لنعود إلى ثورة كازنسكي وتحذيره للثوريين ضد التكنولوجيا من شراكة تامة مع أي جهة لا تعتبر المعضلة التكنولوجية قضيتها مركزية، لأن المؤمن بأي قضية ثانية قد تغريه التكنولوجيا لخدمة قضيته. ويحذّر خصوصاً من اليساريين ومن الأناركيين البدائيين ومن الراديكاليين البيئيين.

تغيّر طبيعة الثورات فكرياً وفق كازنسكي تأتي من التضخم الفكري في كل الاتجاهات، حتى الأفكار الغريبة والشنيعة لها رواجها، الفنانون في يومنا يتسابقون بالتمثيل بالقيم المجتمعية. لذلك عند صدور أي فكرة ثورية حقيقية ستتكدر في كوم الأفكار المتراكمة، الأفراد لن يشهدوا وهجها كما لمح السابقون تنوّر الأفكار الثورية في مجتمعات تقليدية. كما أن الإنسان المعاصر تم تدجينه بعدة وسائل ولن يتجاوب مع الأفكار الثورية باندفاعية أسلافه. من هذا يستنتج كازنسكي أن رفع الوعي أو انتظار الصحوة الفجائية للمجتمع عن طريق

الأفكار لا يعوّل عليه، على أي شخص يسعى لتحويل المجتمع أن يعمل على التنظيم والتطبيق الفعلي بالدرجة الأولى لا على نشر الأفكار.

خديعة أخرى من النظام تتعلق بالأساتذة الجامعيين، يقول كازنسكي أن المثقفين الجامعيين يعتبرون أنفسهم مفكرين مستقلين أحرار، مع أنهم في نظره عناصر أليفة والأكثر اعتماداً على النظام والأقل شجاعة واختلافاً عن مجتمعاتهم. صفات تجعلهم يشتهون الثورة لكن عدم قدرتهم على التفكير الحر يوقعهم ضحايا خدعة النظام وبدلاً من الثورة ضد قيمه يزعجون الناس ويستفزونهم بأطروحاتهم الثورية وهماً. أكاد أرى جوردان بيترسون ونعوم تشومسكي في هذه الكلمات.

ما الحل إذاً؟

لو سلّمنا بالمشكلة التكنولوجية التقنية وبمركزيتها فما الخطوة التالية؟ كازنسكي يحذر من توقع حلول سحرية تقدمها التكنولوجيا، ربما خطر في بال القارئ حلول مثل استخدام الطاقة المتجددة بدلاً من الوقود الأحفوري، كازنسكي يحاول إطفاء هذا الأمل بذكر آثار التكنولوجيا المستخدمة لاستخراج الطاقة، المراوح التي تستخرج طاقة الهواء تؤدي إلى قتل الطيور ومنها الجارحة، وموت تلك الطيور سيؤدي إلى انتشار القوارض التي كانت تقتات عليها الطيور مما يتطلب المزيد من المبيدات. الطاقة الشمسية ليست بخيارٍ أفضل، عندما تغطي الألواح المركزة للطاقة الشمسية مساحاتٍ شاسعة ستتضرر البيئة من حولها. على دعاة الطاقة المتجددة إدراك حجم الطاقة التي يستهلكها العالم الصناعي، مما يتطلب استخداماً مفرطاً من هذه المولدات للطاقة المتجددة على اختلافها، مما يعني أضراراً للبيئة وعواقب قد لا نراها كما لم يرَ مستخدمو الوقود الأحفوري خطورته في بدايات استخدامه.

لاستيعاب خطورة المشكلة التكنولوجية في نظر كازنسكي لنا أن نقرأ رده عندما تلقى سؤالاً عن الفوضى التي ستنشب بسبب الثورة ضد التكنولوجيا واحتمالية وقوع حربٍ نووية إثرها، إذ أجاب بأن الحرب النووية ستكون كارثية لكنها لن تمحو البشرية والكرة الأرضية، أي بمواجهة خيار بين حربٍ نووية وبين استمرار النظام التكنولوجي الصناعي سيختار الحرب النووية كالشر الأقل خطراً!

في نظر كازنسكي وعلى لسانه ولسان فعله، يكمن الحل الأمثل في تحطيم النظام التكنولوجي بضربة لا يقوم منها أو يتأخر قيامه منها، يمكن أن نلقبه مفجر الثورة المضادة للثورة الصناعية. انتظار تكنولوجيا تحل المشكلة التكنولوجية هو كمحاولة التخلص من النار بحرقها. لا يُبشّر بعالم مثالي بعد نجاح ثورته لكنه يرى في بقاء هذا النظام دمار الكوكب كما نعرفه أو تحولنا لعبيد للتكولوجيا أو مسوخٍ في المستقبل أو جميع ما ذكر، كلها نهايات علينا أن نثور ضد التكنولوجيا لتفاديها.

جاك إلول يعترف في مطلع كتاب "المجتمع التقني" (النسخة الأمريكية المُراجَعة) بأنه سيعرض المشكلة التقنية ويحللها دون أن يعرض الحلول لأن الحلول المذكورة هنا وهناك في الكتاب ليست عملية وإنما مثالية وبالتالي لا يمكن تطبيقها، لا يدعو إلى التشاؤم أو الاستسلام بالطبع، الحلول ستظهر لاحقاً. يطلب من القارئ ألا ينتظر من المفكرين وأساتذة الجامعات والتقنيين إيجادها، المعضلة تتطلب منا جميعاً بذل كل جهدنا وطاقاتنا وخيالاتنا لنجد الحلول، وعلى كل فرد أن يسعى لمقاومة العقبات التقنية في حياته الشخصية. الحرية بالنسبة لإلول ليست حقاً تضمنه الطبيعة أو قانوناً يُسن. أينما ننظر هناك جبريات والحرية تأتي بالتفوّق عليها. لا أدري ما رأي إلول بحل كازنسكي ولن أخمن في هذا المجال. من المهم أن يعرف القارئ أنني حتى وقت نشر هذه المقالة لم أقرأ كتابه المنشور لاحقاً "الخديعة التكنولوجية" كي أعرف كم غيّر من رأيه، لكن وفقاً لديفيد سكربينا، نظرته أصبحت أكثر تشاؤماً.

تعليقات كاتب المقالة

العبد الفقير كاتب هذه المقالة ما زال يدرس الموضوع لكنه لم يدرسه عن كثبٍ كافٍ ليفتي بحدٍ للخطيئة التقنية. لم أبتّ بعد في مركزيتها، لكنني وجدت في هذه الكتابات المضادة لل"تقنية من أجل التقنية" قطعةً من أحجيةِ فهم واقعِ بلاد الشام. القضايا السياسية والوجودية والشخصية التي تشغل بالنا تتأثر بطبيعة العالم التكنولوجي، الهيمنة العالمية لقوى عظمى مبنية على التفوق التقني لا الأخلاقي، النفوذ العسكري في يد أراذل الأقوام جاء بعد اتقانهم التقنيات الاقتصادية والخطر سيتضاعف قريباً مع تركيزهم على اختراق التقنيات الحاسوبية في العالم كله. قيود البنوك الدولية الربوية تخنق دولاً بأكملها وأرى أهمية النظر نظرة أبعد من فساد الحكومة كل هذا تجليات لعالم تكنولوجي مُجحف لا روح فيه، لعالمٍ ليس لنا.

على الصعيد الشخصي، تعقيد الحلول للمشاكل الصحية، تشظّي الهوية، إحباط التطلعات الإبداعية، كل ذلك أيضاً يعود للتواجد في عالمٍ يأخذ نتائج الامتحانات الخطية والشهادات كمعايير لكفاءة الشخص، أما الأخلاق والضمائر فهي لا تُحسَب وكل ما لا يُحسب لا مكان له

في زمن الآلات. مما ينتج أطباء لا يخافون سوى عدم تحقيق طموحاتهم الاقتصادية المادية. وقد دفعت ثمناً ليس زهيداً عندما وضعت ثقتي في أيدي أولئك الأطباء. الهوية تُقصف وتُستعمر مباشرة وتجد نفسها في صراعات يومية لترسم حدودها، "*المخيلة*" تعلق بين تقنيين لغويين وبين تقنيين غربيين أقحموا أعالمهم الفنية في كل ثقافات العالم المنصهرة في بوتقة المصانع.

في بداية المقالة ذكرت ملاحظة الحياد التقني وتوافقه مع إحدى توجهات الضدية للتقنية. المسألة فلسفياً تعتمد على جوهر الظاهرة التكنولوجية المعاصرة. لو كانت هناك حقاً جبرية تقنية لن يكون هناك معنى من ثورة ضد التكنولوجيا لكن ذلك لا يمنع من محاولة للتمهل. مثلاً كل فرد سيموت لا محالة، هذا لا يعني تعريض النفس للخطر أو التسرّع نحو المحتوم. لو اقتضت السنة الكونية فناء البشرية عبر التطور التكنولوجي يمكننا أن نأخذ وقتنا قبل الوصول لتلك المرحلة. هذه النظرة الضدية للتقنية مع جبرية تقنية قوية، ولو فهمت فلسفة السيد ديفيد سكربينا فهو أحد المفكرين المنتمين لهذه النظرة. جاك إلول ولويس ممفورد يضعون المسألة في سياق قِيمي أكثر من متيافيزيقي. نقدهم الأساسي موجه للثقافة التكنولوجية التي تعطي العلوم والتقدم أولوية على اعتبارات قيمية أخرى. لا أدري موضع هذه النظرة على المقياس الجبري التقني لكنني شخصياً أقرب إليها فكرياً. محبو التكنولوجيا المؤمنون بالجبرية التقنية يعدونا بمستقبل نندمج فيه مع الآلة أو نطور الذكاء الاصطناعي لوصول نقطة التفرد التكنولوجي، النقطة التي نفقد السيطرة على التطور التكنولوجي ويأخذ فيها توجهاً لا يمكن عكسه. تشبيه مبسط لمثل هذه النظرة سمعته على لسان جو روغان، ربما الإنسانية ما هي سوى شرنقة للكائنات التكنولوجية أو العالم التكنولوجي القادم. الفارق الأساسي، وفق فهمي المتواضع، بين الجبريين التقنيين من الناقدين والمشجعين للتكنولوجيا هو تلك النقطة، إذا كنا مقبلين على خطوة قادمة من التطور علينا أن نفرح بذلك يقول المشجع، الضدي للتقنية يقول أن الشواهد كلها تشير إلى كارثة تفني البشرية، أو أن الطفرة القادمة ستفقد الإنسان جزءًا أو كلَّ إنسانيته.

تعقيباً على مسألة الجبرية وحرية الاختيار في الفقرة السابقة ومطلع المقالة: أزعم أن المشكلة هي بعدم إبصارنا للتناقض المستتر في أسطورة التقدم والمقالة ما هي إلا محاولة لإزالة بعض العقبات التي تمنعنا من استيعاب ذلك. الضدية للتقنية كما أراها لا تشكو فقط من الاستخدامات السيئة للتقنيات أو حتى من الاختراعات السيئة فقط وإنما من استخدام التقنيات بكليتها بالصورة الحالية وبتطورها المتهور بوتيرته المعاصرة. الكلام عن حرية لاستخدام التكنولوجيا ولوم الإنسان على الاستخدامات السيئة للمبالغة بتبرئة التكنولوجيا هو أحد شواهد ميثولوجيا التقدم، تبخيس الإنسان وطبيعته أقرب ذهنياً للرجل المعاصر من إعادة النظر في الأدوات التي يستخدمها، العلم والتكنولوجيا أصبحا أقدس من الإنسان والبشرية. لو استخدم جِرَفي أداةً حادةً في عمله و جرح نفسه أو من حوله مع كل استخدام، لكان من السهل علينا ملاحظة السبب وتحذيره من الأداة التي يستخدمها أو التقنية التي يستخدم الأداة بها. لكن لسببٍ ما عندما نشير إلى كلية الأدوات المعقدة الفتاكة المحيطة بنا بنفس الطريقة يبدو الكلام رطانةً للمستمع المتعصب لأسطورة التقدم. "المشكلة بالعامل لا بالأداة الحادة**!**"

الحرية البشرية هي المفتاح للحل في نظري لو رفضنا الجبرية التقنية ورأينا الأضرار كأضرار ناتجة عن الثقافة التقنية أو منبتها في أسطورة التقدم. المؤمن بأن البشرية حرة باستخداماتها للتكنولوجيا أمامه خياران -على الأقل- لو اقتنع بالنظرة الضدية للتقنية ورأى مكمن الخطورة في الداهية التي وقعنا بها: إما أن يعترف بأن تغيراً جذرياً في المفاهيم والقيم ضروري لنستخدم هذه الحرية المزعومة في توجيه التكنولوجيا إلى الطريق الصحيح. الخيار الثاني الأكثر جذرية في الضدية للتقنية هو العمل ضد التكنولوجيا. الحل هو استخدام الحرية لنخرج من الفخ التقدمي برفض التكنولوجيا الحديثة بدرجة أو بأخرى. العودة إلى الوراء، أو الثبات في نقطة نعلم أنها لن تسبب كارثة بيئية أو بشرية، أو تبطئة الوتيرة في التقدم التقني لتعود كما كانت دائماً في تاريخ البشرية تنتظر الإنسان، لا كما هي الآن تجبره أن يلهث وراءها. أو إعادة توجيه العجلة التقنية إلى طريق مختلف. أيّاً كان الخيار يجب **ألا** يعتمد على المزيد من التكنولوجيا والتقنيات، وألا يوازي وتيرة التطور التكنولوجي المعاصرة. وأي خيار يجب أن يشمل الإقرار بالأضرار والعمل بأسرع وقتٍ لمعالجتها.

الغاية من كتابة هذه المقالة ليست الدعوة لأخذ النظرة المتطرفة الكازنيسكية ضد التكنولوجيا كما هي، لا أظن أن فعلاً يُرجى في هذا الصدد في الدول "النامية" على أي حال. ما قصدته هو الإشارة لهذه المعضلة التقنية على لسان من كرسوا أعمالاً أو حياةً كاملة لحلها، تطرفهم في وصفها وبرودهم في تحليلها بعيداً عن المشاعر المرهفة ربما يساعد في توجيه صدمة فكرية كافية ليعيد القارئ النظر بما قايَض مقابل أي راحة أو رفاهية أو فائدة عملية يجنيها من التكنولوجيا.

القارئ المهتم بالإطلاع أكثر على هذه المواضيع، أدعوه للبدء بقراءة بيان كازنسكي "المجتمع الصناعي ومستقبله". أعماله وأعمال جاك إلول تستحق القراءة والدراسة لكن إن لم يرغب القارئ بإمضاء الكثير من الوقت في دراسة "الضدية التقنية" يمكن أن يستعين بكتاب تشاد هاغ عن فلسفة كازنسكي The Philosophy of Ted Kaczynski: Why the Unabomber was Right about Modern Technology.

هذه المقالة لا توضح نظرتي الفلسفية ولا تشمل كل ما أقصده بالنظرة الضدية للتقنية، فهي جزء من مظلة ضدية لأكثر من شيء يبجله أبناء هذا العصر الظالم المظلم المقيت. هي كما ذكرت في مطلعها تلخيص لبعض أفكار كازنسكي وإلول. مقدمة أكثر من أي شيء آخر.

هذه المقالة المتواضعة أهديها إلى *نادي الحرية*.

[1] تطرقت لمفارقة التوحد القسري في رواية "الموتى" بطريقة غير مباشرة كما ركزّت على موضوع النزوح في رواية غيننغاغاب في كتاب المخيلة: الشطية الأولى